

الباب الثالث

العصر العباسي

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزهت الآداب العربية، ونُقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة يُنمَوْنَ، إلى العباس عم النبي ﷺ، وانتزعوا الخلافة قسراً من يد الأمويين بمعونة الفُرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى نل ذلك العرش هلاكاً سنة ست وخمسين وستمائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسة وعمرانية كان لها الأثرُ الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم. وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها، فاتخذت قصبها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزواج والتناسل، واختلاط المدنية الآرية بالمدينة السامية، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى. ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرق وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجوارح والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمُجون، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وكل ذلك له أثر بين في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور.

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً، إلى جبال بيرانس غرباً، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب، واستولى دينهم على الأفتدة، ولغتهم على الألسنة، فتعربت هذه الأمم المختلفة، وامتزجت تلك العناصر المتباينة، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقريباً من الفاتح، واستدراراً للرزق، وتفقهوا في الدين، فكثرت اللحن وسرت عداوة إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة. وبقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقييح العامية ومقت المتكلمين بها، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من الهربية ومن لغة الإقليم الوطنية.

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية والاقتصادية والمرتزية. وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة. ثم رقت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة، وإخلاصهم إلى الترف، وإيثار الموالي للكلم السهل والأسلوب البين، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة، لا بالتلقين والطبع.

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب، كالتبجيل في الخطاب، والاحتشام مع المخاطب، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، كالسفايح والمنصور والرشيد وذي الرياستين وركن الدولة إلخ، والإسهاب في العهود والرسائل، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى.

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب، حتى خلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢ إذ

استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتمد من التركستان فأخذوا يغالبون العرب، ويواثيون
 الفرس، ويغتصبون السلطان. وكان الأمر للميرالي بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء
 الميرالي فعضد الأتراك ونصر السنة. فقتل المعمران، وتناضل المذهبان، وانتفى كل منها
 الفلج، والفوز يقهر العرب، وكبت الخلفاء، حتى ذهب حلال الخلافة من الفرس، وزالت
 هيبتها من القلوب، فاستشرى ولاية الأطراف إلى الاستقلال، وبدأ أبو يويه فوضعوا أيديهم
 سنة ٣٣٤ هـ على شؤون الدولة في بغداد. وامتد نفوذهم إلى حبل المماليك الشرقية
 الإسلامية، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق، وهب أخصد الأكاسرة وأبناء
 الساقم يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم. وطلبوا إلى
 شعرائهم من أمثال السنيقي والمفردوسي أن يجدوا مفاخير الأسلاف بتأليف المنظومات
 المقصية والأناشيد القومية. ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً، فبان المتي، وهو من
 رجال القرن الرابع يقول: وقد زار شعب يول من بلاد الفرس:

معاني الشعب طيباً في المعالي	بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن النفس العربي فيها	غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنحة لوسار فيها	سليسان لوسار يترجمنان

ثم اقتدى بالفرس في ذلك الأتراك والأكراد. ولكن العربية بقيت في حبي المقران
 تدفع سبل الفارسية والتركية العجاف، وقد عز التصير من أهلها، حتى غلب للتار على
 بغداد فغلقت على أمرها وخضعت لقوانين الطبيعة القاهرة، بعد ما خلفت في تلك البلاد
 شراً وعلوماً وأدباً لم تقو على محوها الأيام.

الفصل الثاني

النثر

الكتابة

الإنشاء مظهر العقل، ومرآة الخاطر، يتأثر بما ينال المدارك والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثرٌ عظيم في العقول والميول ظهر على أقلام الكاتيبين وألستهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخبروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشياً ولا سوقياً، وفتحوا أبواب البديع، وعُنُوا بالتنميق والتنسيق.

ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، ولم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعهدتها إلى أغراض شتى، كالترجمة. والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهناني والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضرية التي لم يعهد أكثرها من قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداء، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكتاب يتنوع الدواوين: فكان منهم كتاب الخراج والنفقات، وكتاب المظالم والقضاء، وكتاب الجيش والشرطة، وكتاب الضياع والإقطاع، وكتاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة واستاذوا البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز والقصْد في الغلو والتنميق، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء، عنهم تصدر، وإليهم ترد. وكان جعفر بن يحيى يقول في إيثار الإيجاز: «إن إستطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا».

فلما نزع العرب إلى الترف، وزاد اختلاطهم بالفرس، أخذوا يتأنقون ويظيلون. وازداد ذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء، وعاقبوا الجمل على المعنى الواحد، ورأوا ذلك التكرار أبلغ للمعنى، وأوقع في النفس. وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وإن وقد تلكأ في بيعته: «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت» فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب: «إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب. والصواب أن يطيل ويكرر، ويُعيد ويُبدى، ويحذر وينذر». ثم مالوا إلى الأزواج والسجع، وتضمن الأشعار والأمثال. وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ.

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله، سرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدييح اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا في ذلك حتى سمحت مبانهم وفسدت معانيهم، فكانت مموهة الظاهر مشوهة الباطن، كسيف من الخشب في غمد من الذهب. وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم، كتاريخ العتبي والفتح القدسي.

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبعت كل طبقة في عصر من عصوره الأربعة:

فالتبقة الأولى: إمامها ابن المقفع. وطريقته تنوع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع. وقد حدَّ البلاغة فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها». وقال لبعض الكتاب: «إياك وتبَّع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العيُّ الأكبر». وقال لآخر: «عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة». ومن رجال هذه الطبقة يعقوب بن داود، وجعفر بن يحيى، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هرون، والحسن بن وهب.

والتبقة الثانية: إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفأة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سامة القارىء، وتحليل للمعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والتبقة الثالثة: إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة الإتباعية عند الفرنج. لتقيدها بقيود لا بدَّ من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

فمن قيودها السجع القصير، والجناس، وتضمين المُلح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر، والتوسع في الخيال والتشبيه؛ مع إجادة المعنى وسلاطته. ومن رجالها للصاحب بن عباد، والوزير المهلي، والخوارزمي، والسديع، والصابي، والفعالي. ومن آثار هذه الطبقة للمقامات.

والطبقة الرابعة: إمامها القاضي الفاضلي. وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توحجي السجع والبديع، إلا أنه غالى في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عهده صناعية مضمناً: ألفاظ منمنمة تحتها معنى غث وخيال فضئيل. ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر، والكتيب الأصبهاني.

على أن عقيدة الكتاب أن استظهار المأثور من المثنون هو عُدّة الثقافة وسبيل التفوق فكانت تخالف بين الأقاليم، وتباعد بين الأساليب، فعددت مذاهب الكتابة في العصر الواحد، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه. وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام علياً كالشريف الرضي. ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور.

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند؛ واستقبال الوفود. وكان للخلفاء الأولين ووعظتهم فيها الشأن الرفيع والشأور البعيد، كالمخضوم والمهدي والرشيدي والمأمون وداود بن علي وخالد بن صفوان وشيبان بن شيبان.

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقيل للفضال بالستان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعي إليها، وحلت الرسائل والمشورات محلها في دفع العظام وسبل السخائم. وقصرت على خطب الجمع والعينين والزواج. على أن الخلفاء أنفسهم ما يرحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الرضي. فلما غلب بنو بويه أيديهم وحضروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء؛ فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة: كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون وملك العبيد السنة للوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كلين نبالة المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمعناها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فزقلها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية.

نماذج الشر

التوقيعات :

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر. مثالها:

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هُبَيْرَةَ بواسطة: إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر في طاعتك. فخذلي منك، ولك من نفسك.

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبتك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة. ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد. ووقع في كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم يتهبوا.

وقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: داو جرحك لا يتسع. ووقع في نكبة جعفر بن يحيى: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آنتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو. ووقع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: ﴿فإذا نفع في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾. وكتب إليه إبراهيم بن المهدي: إن غفرت بفضلك، وإن أخذت فبعدلك. فوقع في كتابه: القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله. ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا.

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوبوس: العدل أوثقه، والتوبة تطلقه، ووقع في كتاب رجل شكأ إليه بعض عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت.

ووقع في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً: دَعِ الضرع يدر لعيرك كما دَرَّ لك.

الخطب:

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُوا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه،

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٠١.

لإعزاز دينه وإعلاء حقه. إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه. إن من نازعنا عروة هذا القميص أجززناه خيء هذا الغمد. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمتنا عليه حكمه على غيره، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد أباه:

والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمنيته، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته ولو أردته لكان أسرع إليّ من السيل الحذور، ومن النار إلى يابس العرفج. وإني لمأخوذ بما لم أجن، ومستول عما لا أعرف. ولكنه والله حين رأيته للملك قمتا، وللخلاقة خطراً، ورأى لي يداً تنالها إذا مدت، وتبلغها إذا بسطت، ونفساً تكمل لخصالها، وتستحقها بخلالها - وإن كنت لم أخطر تلك الخصال، ولا اصطنعت تلك الخلال، ولم أرشح لها في سر، ولا أشرت إليها في جهر، ورأها تجن إليّ حنين الوالدة، وتميل إليّ ميل الهلوك، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع، وترغب في خير مرغب، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها، ونصب في التماسها. وتفرد لها بجهدته وتهياً لها بكل وسعه، فإن كان إنما حسبني على أنني أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق بي، فليس ذلك بذنب فأتوب منه، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه. وإن زعم إنه لا صرّف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم، والحزم والعزم، فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظاً، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً، وسواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي. ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير. ومن المجهود إلا القليل!

وخطب داود بن عليّ يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال:

شكراً شكرياً! إنا والله ما خرجنا لنخفر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً. أظنّ عدوّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوحى له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها، وعاد القوس إلى النزعة، ورجع الملك إلى نصابه في أهل بيت النبوة والرحمة، أمّن الأسود والأحمر. ولكم ذمة الله. لكم ذمة رسول الله ﷺ. لكم ذمة العباس لا وربّ هذه البنية - وأوماً بيده إلى الكعبة - لا نهيج منكم أحداً.

وخطب شبيب بن شيبة يعزي المهدي يوم توفيت أخته قال:

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزقت أجراً، وأعقبك صبياً، ولا أجهد الله بلاءك

بنقمة، ولا نزع منك نعمة. ثواب الله خير لك منها. ورحمة الله خير لها منك، وأحقُّ ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده!

الرسائل:

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلالها:

بلغني استقلالك لما لَطَفْتَك. والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتتم.

وكتب في تهنئته بابلاله من مرض:

قد أذهب الله وصب العلة ونصبها؛ ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من ارغام العدو ببقائها، أضعاف ما كان عنده من السرور بأولائها.

وكتب محمد بن عبد الملك الزياد على لسان الخليفة لأحد العمال:

أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عُذر يوجب حجة، ولا يزيل الأئمة: إما تقصير في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب. وأية هاتين كانت منك، مُجَلَّةٌ لِلنُّكْرِ بك، وموجبة للعقاب عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلت من عظم العثرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضافة. والسلام.

وكتب أبو الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرفق صفوها النزوع نحوك، أعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعبي بنجاح؛ لكن، ما بقي أن يصفوا عيش مع بعدي عنك ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشملي أنسي. وقد حرمت رؤيتك، وهدمت مشاهدتك. وهل تسكن نفس مُتَشَعِّبَةٌ ذات انقسام، وينفع أنس بيبت بلا نظام، قرأت كتابك - جعلني الله تعالى فداءك - فامتألت سروراً بملاحظة خطك، وتأملت تصرفك في لفظك. وما أمرظهما، فكل خصالك مقرط عندي. وما أمدحهما، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي. وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطي هواك وما ألقى على بصري.

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمداني

حدثنا عيسى بن هشام قال: لما بلغت بي الغربية باب الأبواب، ورضيت من الغنيمة بالإياب، ودونه من البحر وثاب بغاربه، ومن السفن عساف براكبه، استخرت الله في القفول، وقعدت من الفلك، بمشابة الهلك. ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار جبلاً، وتحوذ من الغيم جبلاً بريح ترسل الأمواج أزواجاً، والأمطار أفواجاً، وبقينا في يد الحين، بين البحرين، لا تملك عدة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء. ولا عصمة غير الرجاء. وطوبيناها ليلة نابغية، وأصبحنا نتباكي ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضل جفنه، ولا تبتل عينه، رخي الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحه. فعجبنا والله كل العجب. وقلنا له: ما الذي أمنك من العطب؟ فقال: حرز لا يغرق صاحبه. ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت. فكل رغب إليه، وألح في المسألة عليه. فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم. قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حقة عاج، قد ضمن صدرها رقاعاً وحذف كل واحد منا بواحدة منها. فلما سلمت السفينة، وأحلتنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه، فنقدوه. وانتهى الأمر إليّ فقال دعوه فقلت لك ذلك، بعد أن تعلمني سرّ حالك. قال: أنا من بلاد الاسكندرية. فقلت: كيف نصرك الصبر ونخذلنا؟ فأنشأ يقول:

ويك لولا الصبر ما كُنْ	ت ملأت الكيس تبراً
لن ينال المجد من ضا	ق بما يخشاه صدرا
ثم ما أعقبني السا	عة ما أعطيت ضراً
بل به أشند أزرأ	وبه أجبر كسراً
ولو أني اليوم في الغر	قى لما كلفت عذراً

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجوز مستجدية:

اعلموا يا آمال، وثمان الأرامل، أني من سروات القبائل، وسريات العقائل، لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسرون القلب، ويؤمنون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاء، وفجع بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهراً لبطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، وفقدت الراحة، وصلد الزند، وهنت اليمين. وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبر العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر اسودّ يومي الأبيض، وبيض فودي الأسود؛ حتى رثي لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر!

الفصل الثالث

الكتاب

٣٠ - ابن المقفع

٧٢٤ - ٧٥٩ م

١٠٦ - ١٤٢ هـ

نشأته وحياته :

عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة. ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، وكان والده داؤويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف، فاحتج من مال السلطان شيئاً، فضربه الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع. وربى عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية، فاستكتبه في عهد بني أمية داود بن هبيرة، وفي عهد بني العباس عيسى بن علي عم المنصور، وعلى يديه أسلم. قال له ذات يوم: «قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك»، فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورؤوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً. ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فلما كلمه عيسى في ذلك قال «كرهت أن أبيت على غير دين» ثم غدا عليه فأعلن إسلامه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد، وقد كان اسمه من قبل روزبه.

٣٠ - انظر ترجمته في: أخبار الحكماء: ص ١٤٨، وأمرأ البيان: ص ٩٩-١٥٨، وأمالى المرتضى: ٩٤/١، وتاريخ يعقوبي: ١٠٤/٣، وتاريخ الطبري: ١٨٢/٩، وخزانة الأدب: ٤٥٩/٣-٤٦٠، ومعجم المطبوعات: ٢٤٩، والبداية والنهاية: ٩٦/١٠، وسير أعلام النبلاء: ٢٠٨/٦، والأعلام للزركلي: ١٤٠/٤

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا. ورُمي بالإلحاد لمعارضته القرآن، وترجمته كتب الزنادقة، وتمثله حينما مر على بيت ناز للمجوس ببتي الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعزُّلُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إنني لأمنحك الصدودَ وإنني قسما إليك مع الصدود لأُميل

وبقي ابن المقفع في خدمة عمِّي المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذي كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فנסاؤه طوالق، ودوابه حُبْسٌ، وعبيده أحرار، والمسلمون في حلٍّ من بيعته» فوجد المنصور عليه وأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية المهلبى أمير البصرة، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به في حضرة وجوه البصرة. فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال: (السلام عليكما) يعني سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالغاً من العمر ستاً وثلاثين سنة.

أخلاقه وعلمه:

كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعاً في أدب العرب والفرس «مقدماً في بلاغة اللسان والقلم ووالترجمة واختراع المعاني وابتداع السَّير. وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً».

وقد قيل: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع. وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة. فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن علمه أكثر من عقله. وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن عقله أكثر من علمه. وقد سئل ابن المقفع: من أدبك؟ فقال نفسي: كنت إذا رأيت من غيري حسناً أتيتُه، وإن رأيت قبيحاً أبيتُه. وكان في سائر أحواله عفيفاً أدبياً وفياً لأصحابه. وأمره مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك.

نثره وشعره:

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتاب. وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عُرفت به وأخذت عنه. وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النثر في هذا العصر فارجع إليه. أما شعره فقليل جيد، روى صاحب الحماسة منه في قوله في رثاء يحيى بن زياد:

رُزُّننا أبا عمر ولا حيَّ مثلهُ فله رَيْبُ الحادِثاتِ بمن وقع!

فإن تَكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلةٍ في انسدادٍ لها طمع
فقد جرَّ نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

مترجماته ومؤلفاته :

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه. وكتابه كليله ودمنة إذا صح أنه مترجم لا يزال مثلاً للترجمة الصحيحة البليغة. وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق. وكتاب إيساغوجي لفرفوروس الصوري؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح: ونقل كتاب التاج في سيرة أسوشروان. وألف كتابي الأدب الصغير والكبير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان.

نموذج من نثره :

قال: لا يؤمنك شرُّ الجاهل قرابةً ولا جواراً ولا إلف، فإن أخوف ما يكون للإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها. وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألفك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك أذاك وأخافك؛ مع أنه عند الجوع سبغ ضار، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة في الدين قاتل إلى جهنم: فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأسود، والحريق المخوف، والدين الفادح، والداء العياء.

وقال أيضاً: «إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فأفعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم، وتزيينهم من كلامك ما لم تزين، هو الجمال».

وقال أيضاً: كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما عظمه في عيني صغيراً الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يُماري فيما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعه. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بدم القائلين. وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يؤدي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى،

ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخصص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، وإن تطيق. ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

٣١ - الجاحظ

٧٨٠ - ٨٦٩ م

١٦٣ - ٢٥٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عثمان عمرو بن الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم وامتدى الأدب، فأكب على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة. وتخرج في علم الكلام على أبي إسحق النظام أحد المعتزلة فأخذ بمقالته، ونصر الأعزاز بكتابه. وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم، وأغرّم بالمطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته، واستوعب مادته. وكان يكتري حوانيت الوراقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائل العلوم، واستبطن دوائل الفنون، وأصبح في الأدب منقطع القرين.

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعي الجانب، مكفي الحاجة، أثيراً لدى الولاة، مكرماً عند الوجوه، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب. ثم كان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزياد طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضة الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو عثمان دميم الخلقه جهم الوجه جاحظ العينين «ومن ذلك لقبه»؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فأستقدمه إليه بسر من رأى ليؤدب ولده. فلما

٣١ - انظر ترجمته في: إرشاد الأريب: ٥٦/٦ - ٨٠، والفهرست: ص ٢٠٨، ٢١٢، وسرح العيون: ص ١٣٦، وأمرأ البيان: ص ٣١١ - ٤٨٧، وميزان الاعتدال: ٢٤٧/٣، وتاريخ بغداد: ٢١٢/١٢، وتذكرة النوادر: ص ١٠٨، والفهرس التمهيدي: ص ٥٥٠، ووفيات الأعيان: ٤٧٠/٣، ٤٧٥، وآداب اللغة: ١٦٧/٢.

رآه استبشع منظره و صرفه بعشرة آلاف درهم . وكان في الجاحظ دُعابة وَمَجَانة واستخفاف بالعبادات المرعية والآداب الوضيعة، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد فكَّه المحاضرة صادق المواساة .

علمه وأدبه :

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارئ ما لسانبغة العرب وفولتير الشرق من الأثر في الأدب . ويحسبنا أن نقول إنه تميز من أُناده بغزارة العلم، وقوة الحجّة، واستقصاء البحث، وشدة المعارضة، وبلاغة القول، وإنه تبخر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسّموا بالجاحظية . وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع . وهو أول عالم عربي جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع .

نثره وشعره :

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض، ونهج للمترسلين والمصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول . وقد قال فيه البديع : إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة، قليل الاستعارة . وهذا الحكم وإن كان شديداً يطابق الحق أحياناً . أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه . وقد نزع في نظمه إلى الاتباع لا إلى الابتداع وهو قليل منشور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير ابن عبد الملك :

بدا حين أترى لإخوانه ففللّ منهم شبابة العدم
وأبصر كيف انتقال الزمان فبادر بالعرف قبل الندم

وقوله :

لئن قُدمت قبلي رجال فطالما مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكنّ هذا الدهر تأتي صروفه فتبرم منقوضاً وتنقض مبرماً

مؤلفاته :

كُتِب الجاحظ تربي على مائتي كتاب، وهي كما قال الأستاذ ابن العميد؛ «تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً» ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في الأدب والإنشاء والخطابة، وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب البخلاء، وديوان رسائله .

مثال من نثره :

قال يعاتب صديقاً له : «والله يا قُليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك حبل المصارمة، وأرجو الله أن يديل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدنا نتناكر عند اللقاء».

وقال في رسالة التبريع والتدوير وهي من أبلغ رسائله :

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك، مرة بالمزاح، ومرة بالنسيان، ومرة بالاتكال على عفوك. وعلى ما هو أولى بك. والجملة أنا لو اعتمدنا، ثم أصررنا، ثم أنكرنا، لكان في فضلك ما يتغمده، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا، واعتدنا ثم أطنبنا؟ فإن تقبل فحظك أصبت، ولنفسك نظرت. وإن لم تقبل فاجهد جهدك، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا عفا عنك إن عفوت. وأقول كما قال أخو بني منقر:

فما بُقيَا عليّ تركتُماني ولكن خفتما صدر النبال

والله لئن رميتني ببجيلة لأرْمينك بكنانة. ولئن نهضت بصالح بن عليّ لأنهضنَّ بإسماعيل بن عليّ. ولئن صُلّت عليّ بسليمان بن وهب لأدمغتك بالحسن بن وهب. وأنا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله تعالى في السلامة. واحذر البغي فإن مصرعه وخيم، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل. وإياك أن تتعرض لجبرير إذا هجا، وللفرزدق إذا فخر، ولهرثمة إذا دبر، ولقيس بن زهير إذا مكر، وللأغلب إذا كر، ولطاهر إذا صال. ومن عرف قدره عرف قدر خصمه، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره. وعليك بالجادة ودع البنيات. فإن ذلك أمثل لك. وأنت والله تعلم علم الاضطرار، وعلم الاختيار، وعلم الأخبار، أني أظهر منك حرباً، وألطف كيداً، وأكثر علماً، وأوزن حليماً، وأخف روحاً، وأكرم عيناً، وأقل غشاً، وأحسن قدماً، وأبعد غوراً، وأجمل وجهاً، وأنصح ظرفاً، وأكثر ملحاً وأنطق لساناً، وأحسن بياناً، وأجهر جهرية، وأحسن شارة، وأنت رجل تشد من العلم، وتتف من الأخبار، وتموه نفسك، وتعز من قدرك، وتهياً بالثياب، وتتبل بالمراكب، وتتجب بحسن اللقاء؛ ليس عندك إلا ذلك. فلم تراحم البحر بالجداول، والأجسام بالأعراض، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ؟ ومن يعدل بين القناة والكرة؟ وبين رخي الطحان وبين سيف يمان؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين، وأنقص الشرّيين، وبين المتقاربين دون المتفاوتين. فأما الخل والعسل، والحصاة والجبل، والسم والغذاء، والفقر والغنى، فهذا مما لا يخطيء فيه الذهن، ولا يكذب فيه الحسّ.

٣٢ - ابن العميد

٨٩٢ - ٩٧٠ م

٢٩٧ - ٣٦٠ هـ

نشأته وحياته :

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم). كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى، فنشأه على الأدب ودربه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عُدته، واستحصدت قوته، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم. وما زال ينتقل في مدارج الرقي، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وُزِّرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثمانين وثلثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشؤون الدولة، وجرى على منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبى روحاً لنهضة العلم وقطباً لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبى على مكانته يجله ويتهيبه، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها:

بادٍ هواك صَبَرْت أم لم تصبرا وبُكَاك إن لم يجر دمْعك أو جرى

ويقول فيها:

من مُبْلَغ الأعراب أني بعدها شاهدت رَسْطَاليس والإسكندرا
ومللت نحر عِشَارها فأضافني من ينحر البَدْرَ النُّضَارَ لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملِّكاً متبدِّياً متحضراً
ولقيت كلَّ الفاضلين كأنما ردُّ الإله نفوسهم والأعصرا

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القَوْلنج والنُّقرس حتى استعز الله به سنة ستين وثلثمائة.

٣٢ - انظر ترجمته في: الإمتاع والمؤانسة: ١/٦٦، وتجارب الأمم: ٦/٢٧٤ - ٢٨٢، ومعاهد النصيص: ٢/١١٥، وبتيمة الدهر: ٣/١٥٤ - ١٨٨، والكامل في التاريخ، في حوادث سنة ٣٥٩، ووفيات الأعيان: ٥/١٠٣ - ١١٣، وشذرات الذهب: ٣/٣١ - ٣٤، وطبقات أعلام الشيعة: ص ٢٦٩، والأعلام: ٦/٩٨.

نثره وشعره :

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهدهاه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفِقر أنيق الديباجة، بديع الوشي، طبع على غِرازه مشايعوه لموافقته ذوق العصر. ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرقى معاصريه طبعاً، وأقلهم سجعاً، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحاً للأمثال، وتضميناً للحكم، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما رأى إلا البديع، وكان ابن العميد متفنناً في فنون الكتابة، متفوقاً في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد».

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من

نثره.

مختار من كلامه :

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة :

كتابي وأنا مُترجح بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنك تدل بسابق حُرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية: وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويححق كل ما يُرعى لك. ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلاً لصدМК، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقاتك واستطلاحك، فقد يَغْرُب العقل ثم يؤوب، ويعزّت اللب ثم يشوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويُضاع الرأي ثم يُستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو.

ومنها: وزعمت أنك في طَرْف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها. وإذ كنت كذلك فقد عرفتَ حالها، وحلبت شطريها؛ فنشدتُك الله إلا ما صدقتني عما سألتك كيف وجدت ما زلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء غِذيّ وماء رويّ، ومهاد وطّي، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، عززت به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعّة، وأيسرت بعد المعسرة، وأثريت بعد المترّبة؟ . . . فقيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوضُ عما عددت، والخلفَ مما وصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونقضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عندك؟ أظلّ ذو ثلاث شُعب، لا ظليل ولا يُعني من اللهب؟ قل نعم كذلك.

ومنها: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستكرها. والمس جسّدك وانظر هل يُحسُّ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟

وهل حلّى بصدرك أن تظفر بِفؤوتٍ سريح ، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله .

ومن شعره قوله لبعض إخوانه :

قد ذبّت غيرَ حشاشةٍ وذمّاء
لا أستفيق من الغرام ولا أرى
وصروف أيام أقمّن قيامتي
وجفاء خيل كنت أحسب أنه
أبكي ويضحكه الفراق ولن ترى

ومنها :

من يشف من داءٍ بآخرٍ مثله
لا تغتنم إغضاءتي فلعلها
واستيق بعض حشاشتي فلعلني
فلئن أرحت إليّ عازب بلوتي
لأجهّزَن إليك قبجّ تشكر
ولأعضلنّ مودتي من بعدها

أثرتَ جوانحه من الأدواء
كالعين تغضبها على الأقداء
يوماً أقيك بها من الأسواء
ووجدت في نفسي نسيم عزاء
ولأنثرنّ عليك سوءً ثناء
حتى أزوجهما من الأكفاء

٣٣ - الصاحب بن عباد

٩٣٨ - ٩٩٥ م

٣٢٦ - ٣٨٥ هـ

نشأته وحياته :

وُلد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عبّاد بطالقان من أعمال قزوين ، ودرس على ابن فارس اللغوي ، واتصل بابن العميد شاباً فأخذ عنه ؛ واشتدت صحبته له فلقب من أجل ذلك بالصاحب . ثم وررَ لمؤيد الدولة ابن بويه بعد أن قُتل أبو الفتح بن العميد وزيره ، فدبر أموره وسدَّ ثغوره . ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب ،

٣٣ - انظر ترجمته في : البداية والنهاية : ٣١٤/١١ - ٣١٦ ، ولسان الميزان : ٤١٣/١ - ٤١٦ ، ومعجم الأدياء : ١٦٨/٦ - ٣١٧ ، ووفيات الأعيان : ٢٢٨/١ - ٢٣٣ ، والنجوم الزاهرة : ١٦٩/٤ - ١٧١ ، ومعاهد التنصيص : ١١/٤ ، وابن الوردي : ٣١٢/١ ، والمنظّم : ١٧٩/٧ - ١٨١ ، ونزهة الجليس : ٢٨٤/٢ ، والأعلام : ٣١٦/١ .

فقال له: «لك في هذه الدولة من إرث الوزارة، ما لنا فيها من إرث الإمارة. فسيب كل منا أن يحتفظ بحقه.

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه، وغرس للأدب جناحاً ناضرة، وشار للعلم ربوعاً عامرة. وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه، ويتنافسون في مدحه، وهو يرشدهم بنقده، ويعينهم برفده، حتى أزهى الأدب في عهد بني بويه بفضلته ازدهاراً قل أن يصادفه في عهد آخر.

وكان للصاحب وُتِعَ بجمع الكتب وشغف بمطالعتها. وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر، ومتكلم يناظر، وناشيء يروي ويستفيد. وعاش الصاحب ما عاش مبعجلاً مفضلاً نافذ الأمر مطاع الإشارة. فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقوادئه في خير ملابسهم. فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض. ودفن بأصبهان.

نثره:

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأرعى عليه في الحلية اللفظية ولا سيما في السجع والجناس، حتى قيل فيه: «لورأى سجعه تنحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها جبل الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها» ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي. وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده. ولم تعقه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات، وكتاب الإمالة، والكشف عن مساوئ المتنبي، وغير ذلك: وأكثر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شعلة الأدب.

نموذج من كلامه:

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الرّي وأفداً عليه:
تحدثت الركابُ بسير أروى إلى بلد حططت به خيامي
فكدت أطيّر من شوق إليها بقادمة كقادمة الحمام

أحقُّ ما قيل أمرُ القادم، أم ظنُّ كأماني الحالم؟ لا والله بل هو درك العيان، وإنه ونيل المنى سيان. فمرحياً أيها القاضي براحتك ورحلك، بل أهلاً بك وبكافة أهلك، وبأ سرعة ما فاح نسيم مسراك! ووجدنا ريح يوسف من ريبك؟ فحثّ المطيُّ تزلُّ غلتي بسقياك، وتزح غلتي بلقياك. وقص عليّ يوم الوصول لنجعله عيداً مشرفاً، ونتخذة موسماً ومعرفاً ورُدَّ الغلام، أسرع من رجوع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وأن يترك الصبأ في عقال وأسر.

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوي يا زباد بن عامر
أصائل قُرب أرتجي أن أنالها بلقياك قد زحزن حرَّ الهواجر

٣٤ - الخوارزمي

٩١٥ - ٩٩٣ م

٣٠٣ - ٣٨٣ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي ، أصل آباؤه من طبرستان وولد بخوارزم ، ثم فارقه وهو فتى السن ابتغاءاً للعلم والتماساً للرزق ، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء . ولقي سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاعتراب : فورد بخارى ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فأكرم مشواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفرته ، وربحت تجارته ، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى مُني في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمداني ومناظرته . فانخذل انخذالاً شديداً ، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته ، وخدمت شهرته ، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة .

منزلته في الأدب والكتابة :

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة ، وشهر بذلك حتى قيل : إنه قصد الصاحب بن عباد بأرجان ، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال : إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول . فقال الوزير قل له : قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب «فقال أبو بكر للحاجب : أرجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال : هذا أبو بكر الخوارزمي .

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب ، عالماً بأشعار العرب وأخبارها ، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب . وهو في النثر من طبقة ابن العميد . وكثير

٣٤ - انظر ترجمته في : يتيمة الدهر : ١٩٤/٤ - ٢٤١ ، والأنساب : ٢٠٢/٨ - ٢٠٣ ، واللباب : ٢٧٣/٢ ، وبغية الوعاة : ١٢٥/١ ، ووفيات الأعيان : ٤٠٠/٤ - ٤٠٣ ، وشذرات الذهب : ١٠٥/٣ - ١٠٦ ، ومعجم الأدباء : ١٠١/١ ، والأعلام للزركلي : ١٨٣/٦ ، وسير أعلام النبلاء : ٥٢٦/١٦ .

من الناس يفضله على الصاحب. ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق، ولا يرجع إلى سليقة. أما شعره فبين الرديء والجيد.

مختار من كلامه :

من فصوله المختارة قوله: الرجال حصون بينها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البرِّ واليُسْر، ويمحقها الحفاء والكِبْر. وإنه لا مال إلا برجال، ولا صلح إلا بعد قتال. والجبان مقتول بالخوف. قبل أن يُقتل بالسيف، والشجاع حي وإن خاته العمر، وحاضر وإن غيَّبه القبر ومن طلب المَنِيَّة هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب. وقال:

أكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه. وأكرم من النبت الزكي من زرعه، وأكرم من الكريم من اصطنعه. لا صيد أعظم من إنسان، ولا شبكة أصيد من إنسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحالته، وبين من اقتنص إنسياً بمقالته!

ومن أجود شعره قوله :

دمعان في الأجنان يزدحمان مضت الشيبية والحبيبة فالتقى
بمودعين وليس لي قلبان ما أنصفتني الحادثات، رميني

وقوله :

قلت للعين حين شامت جمالاً في وجوه كواذب الإيماض
لا يغرُنك هذه الأوجه الغرُّ (م) فيا ربَّ حية في رياض

وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال :

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبواباً؟
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يرضى به للقصر بواباً
قل الدراهم في كفي خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام ألقاباً

وقال في الحكم :

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقال يرثي ركن الدولة :

أست ترى السيف كيف أثلم طوى الحسن بن بويه الردي
وركن الخلافة كيف انهدم رفيع السنان بديع البيان
أيدري الردي أي جيش هزم إذ تم شيءٌ بدا نقصه
رفيع السنان سريع القلم توقع زوالاً إذ قيل تم

٣٥ - بديع الزمان الهمذاني

٩٦٩ - ١٠٠٨ م

٣٥٨ - ٣٩٨ هـ

نشأته وحياته :

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمدان ونشأ بها. وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أديباً في همدان إلا استفذ ما عنده. ثم غادرها إلى صاحب ابن عباد فزاد من معارفه وعوارفه. وقصد جرجان فأقام في أكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن منصور. وفي سنة ٣٨٢ يم نيسابور فتجلت فيها عبقريته، وذاعت بين الناس شهرته، وأملى بها أربعمئة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي، وكان أسنَّ منه وأشهر. وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات. وغلب هذا قوم وذاك آخرون. وساعد لبديع شباؤه ولسانه وحاجته إلى الظهور، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء. وأجاب قرنه داعي ربه، فخلاله الجوى، وابتسم له الدهر، وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها، حتى ألقى عصاه بهرات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها، وعاش بها رخيّ البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨.

واختلف في موته فقيل مات مسموماً، وقيل مات بالسكتة وعُجِّل بدفنه فأفاق في جدته، وسمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر.

أخلاقه ومواهبه :

كان البديع مقبول الصورة، خفيف الروح، ناصع الظرف، ذكي القلب، قوي الحافظة حدّث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً. وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها. وربما ابتداء بأخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متسق. وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع.

٣٥ - انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات: ٣٥٥/٦ - ٣٥٨، وأعيان الشيعة: ٣٠٦/٨ - ٣٥٥، وبتيمة الدهر: ٢٥٦/٤ - ٣٥١، ومعجم الأدباء: ١٦١/٢ - ٢٠٢، ومعاهد: ١١٣/٣، والنوري: ١١٠/٣، والنجوم الزاهرة: ٢١٨/٤، ٢١٩، والكامل في التاريخ: ٢٠٩/٩، والأعلام للزركلي: ١١٦/١، ودائرة المعارف الإسلامية: ٤٧١/٣.

شره وشعره :

نثر البديع يستهوي القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنثور، وللصناعة تأثير فيه؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيّل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسّل، وتفنّن في ضروب الرسائل حتى كان بحقّ فارس الطريقة العميدية وابن بحدّتها.

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر كلما يتفق لأحد.

مقاماته :

المقامات حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو ملحة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكي بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠. وقد كتب أربعمائة مقامة في الكذبة وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام. ولم يعثروا منها إلا ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوباً طلي شهي، إلا أن قصرَ حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال. وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

مختار من كلامه :

قال من رسالة: واللّه لو لا يدٌ تحت الحجر. وكبدٌ تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حَبَّبَ إليّ العيش، وسلب من رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عند هذا المُقام. ولكن صبراً جميلاً واللّه المستعان.

وقال من رسالة أخرى: وجدتك تعجب أن يجحد لثيم فضل صنيعك. فخفض عليك يرحمك الله! إن الذي تعجب منه يسير، في جنب ما يجحد من الناس كثير. إن الله خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصائر، فغاصوا بها على عرق الذهب ففصدوه، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء، وللحوت فأخرجوه من الماء، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم: فقالوا أين وكيف؟ حتى رأوا السيف. فلم تعجب إن جحدوا فضلاً ليست الأرض بساطه ولا الجبال سماطه، ولا السماء فسطاطه، ولا الليل رباطه، ولا النهار صراطه، ولا النجوم أشراطه، ولا النار سياطه. . . ؟

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره:

لعلك يا سيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال:

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والمِقة
إياك واحذر أن تكو ن من الثقات على ثقة

صدق واللّه وأجاد. فللثقات، خيانةٌ في بعض الأوقات. هذه العين تريك السراب
شرباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً، فلست بمعذور، إن وثقت بمحذور، وهذه حال
السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غشيانك وهو الدنيء دخلته، الرديء نحلته،
السيء وصلته، الخبيث جملته. وقد قاسمته في أزرِك، وجعلته موضع سرك. فأرني موضع
غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه. ما أبعد غلطك عن غلط إبراهيم عليه السلام! إنه
رأى كوكباً، ورأيت توبلاً. وأبصر القمر، وأبصرت القدر. وغلط في الشمس، وغلطت في
الرمس! أظاهره غرك، أم باطنه سرك؟

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة:

غضبي جفونك ياريا
وأقني حياءك ياريا
وارفق بجفنك يا غما
خلع الربيع على الربى
ومطارفاً قد نقشت
ض فقد فتنت الحور غمزا
ح فقد كدرت الغصن هزا
م فقد خدشت الورد وخزا
وربوعها خزاً وبزاً
فيها يد الأمطار طرزا

ومنها:

وكان أمطار الربيع
يا أيها الملك الذي
خلقت يداك على العدى
لازلت يا كنف الأمي
إلى ندى كفيك تُعزى
بعساكر الآمال يُغزى
سيفاً وللعافين كنزا
رلنا من الأحداث حرزا

٣٦ - الحريري

١٠٥٤ - ١١٢٢ م

٤٤٦ - ٥١٦ هـ

نشأته وحياته:

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال لها

٣٦ - انظر ترجمته في: معاهد التنصيص: ٢٧٠/٣ - ٢٧٧، وكشف الظنون: ٥٠٧ - ٧٨٩، ومرات الجنان:
٢١٣/٣ - ٢٢١، وتلخيص ابن مكنوم: ص ١٩٤، ومختصر دول الإسلام: ٣٠/٢، والفلاحة =

المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلانها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم ولوعه بالأدب، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم فقربه الأمراء وأمه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه:

كان الحريري دميماً قصيراً بخيلاً قذر الثوب مولعاً بتنتف لحيته عند التفكير. فعاضه الله من ذلك برائح أدبه، وورقيق ملح، وسعة صدره، واعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس منه أن يملي عليه قال له اكتب: ما أنت أول سار غرّه قمرُ ورائدُ أعجبتَه خُضرةُ الدمن فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره:

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع. وهو من ساقه أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البديع، والبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه غليظة ضئيلة كالعروس المسلوقة جملوها بالأصباغ وأثقلوها بالغلائل والحلى. وشعره كثره في الكلف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيراً في ثنايا المقامات وجُمع في ديوان خاص.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملححة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره.

مقاماته:

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السروجي على لسان الحارث بن همام ونسجها على منوال البديع، جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي مالا غاية بعده. فهي ديوان مُمتع

= والمفلوكون: ص ١١٨ - ١١٩، وخزانة البغدادى: ١١٧/٣، ومطالع البدور: ٩/١، والأعلام للزركلي: ١٧٨/٥.

للألفاظ العربية، والنوادر اللغوية؛ والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجليزية في لندن سنة ١٨٥٠، وباللاتينية في هيسبرج سنة ١٨٣٢، ونقلت إلى الفارسية سنة ١٢٩٣، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسي سنة ١٨٢٢.

عيوبها:

ينتقدها أدباء الفرنج في قصرها، ووحدة مغزاها، وأن المؤلف لم يُعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألقه الفرنج واليونان قديماً، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه. وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها:

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمْرَيْن عليه أهبة السفر، ورث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن همام مريداً نفسه. أخذاً بالحديث المأثور: كل كلم حارث وكلكم همام. واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأتمها خمسين.

مختار من كلامه:

قال يشكر أحد الوزراء: دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة، وعلياؤه محسودة، وأعداؤه محسودة، دعاء من يقترب بإصداره، على بعد داره، ويقصر عليه ساعاته، مع قصور مسعاته. وشكره للأنعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل، وجمع له بين التنويه والتنويل، شكر من أطلق من أسرهِ، وأذيق طعم اليسر بعد عسرهِ. ولو نهضت به القدمان، وأسعده عون الزمان، لقدم اعتمار الباب المعمور، وأسرع إليه إسراع العبد المأمور، ليؤدي بعض حقوق الإحسان، ويقرأ صحف الشكر باللسان. ولكن أنى ينهض المُقعد؟ ومن له بأن يصعد فيسعد؟

ومن شعره في الحكم قوله:

لا تزُرْ من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال في الشهر يوم
ثم لا تنظر العيون إليه
وقال أيضاً:

لا تقعدن على ضررٍ ومَسْغَبَةٍ
وانظر بعينيك هل أرضٌ مُعْطَلَةٌ
فعدّ عما تشير الأغبياء به
وارحل ركابك عن ربيعٍ ظمئت به
واستنزل الرّي من دَرِّ السحاب فإن
لكي يقال عزيزُ النفس مصطبر
من النبات كأرض حَفَّها الشجر؟
فأيُّ فضل لعود ما له ثمر؟
إلى الجناب الذي يَهْمى به المطر
بُلَّت يداك به فليهنك الظفر

٣٧ - القاضي الفاضل

١١٣٥ - ١٢٠٠ م

٥٢٩ - ٦٩٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو علي عبد الرحيم البيسانى بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين عليّ قاضي عسقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل. وتوفي سنة ٦٩٥ بالقاهرة.

منزلته في الكتابة:

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغراق في التورية والجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبل طلاء خداعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السقيم. بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عبّاد الصنعة من أشباه الكتاب، وورّطوا أنفسهم فيما لا غناء

٣٧- انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة: ١٥٦/٦، وخطط مبارك: ١٢/٦، وكتاب: الروضتين: ٢٤١/٢، والكتبخانة: ٢٩٠/٤، وفريدة القصر: قسم شعراء مصر ٣٥/١، وكشف الظنون: ١٠١٦/٢، والنعمي: ٩٠/١، والنويري: ١/٨ - ٥١، والأعلام للزركلي: ٣٤٦/٣.

فيه ولا رجع منه . وظل هذا المذهب غاشياً على العيون، رائتاً على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية .

نموذج من كلامه :

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عيذاب في توليته خطابة الكرك وهي :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته، وتقبّل عمله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوه قاتلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكتبته .

خدمة الملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما نبأ به المنزل عنها، وقلّ عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبّق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهاراً فلا يسأل صباحها . وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب، وتوسل بالملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب . والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام .

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الإجتماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في نفوس الكتاب؛ فإن أولئك بالخلفاء ألقوا، ونفوسهم بالترف والمدنية أعلت. وهم المنادون على الشراب، والمفاكهون في السمر ضاق مضطربهم في السعي فاتسع متقلبهم في الخيال، وغلت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر ففرغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة. ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً، ومن الحضارة والطبيعة ناصرأ، ومن القريحة والسليقة مؤاتاة، فجالوا في الشعر جولة لم تتوافر أسبابها لأسلافهم، ونقلوه من البوادي المجدبة، والأخبية المطنبة إلى الرياض الناضرة، والقصور الشاهقة، والمناظر المونقة. على يد زعيم المولدين بشار.

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه.

فأما التأثير في أسلوبه، فهجر الكلمات الغريبة، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث البديع والاستكثار منه، وترك الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور والخمور والغزل، والإغراق في المدح والهجاء، والإكثار من التشبيه والاستعارة، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب.

وأما في معانيه فتوليد المعاني الحضرية، واقتباس الأفكار الفلسفية، إذ أكثر شعراء هذا العصر ولدان جنسيتين، ورضاع لغتين وأدبين، وربائب حضارتين مختلفتين. ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لا في فنونه، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم. ولا بشعر اللاتين وخطبهم؛ تعصباً لأدبهم وإيثاراً لشعرهم؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم.

وأما في أغراضه فبالبالغة في نعت الخمر ومجالسها، ووصف الرياض والصيد، وغزل المذكر، والمجون، والوعظ، والزهد، والأخلاق، والفلسفة، وضبط العلوم كالنحو وغيره.

وأما في أوزانه، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة، وابتداع أوزان أخرى، كالمستطيل والممتد وهما عكس الطويل والمديد، والموشح والزجل، والدوبيت والمواليا. وكذلك في القافية كالمُسَمِّطِ والمُزْدَوِّجِ.

ولما انفرط عقد الخلافة، وتعددت حواضر الدولة، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشعر في غير بغداد ملاذاً وجمي؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بني بويه وآل حمدان أكفاً سَمَّحة، وصدوراً رَحيمة، وربوعاً خصبة، فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ولنظرة عَجَلِي في فهرس اليتيمة للثعالبي تكفيك لتعلم أثر ذلك الشعب السياسي في نهضة الشعر، إذ كان الأمراء يتقيلون الخلفاء في تقريب الشعراء وتعزيت الأدياء والشعر والعلم كما رأيت لا يزهوان إلا في ظل ملك أو أمير.

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ، والإصابة للغرض، والافتنان في المعنى، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة، فذهب معه جمال الشعر العربي من الشرق، وفقد تأثيره في النفوس، لذهاب المعضدين له من بني بويه، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالي الفتن والمحن، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية، وعَيَّت القرائح عن التوليد والابتداع، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مُهلِة النسيج مُنَمَّقة الوشي، وأخذوا يتعلقون بالبديع، ويغفلون في المجاز والكناية، ويقلدون العجم في إغراقهم ومهاواتهم الملوك والأمراء. ولا سيما المتأخرون منهم، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا: «أعذب الشعر أكذبه». ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كمال النثر فيه سواء بسواء.

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحي وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة العربية، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية؛ فهو في الجاهلية أنغام صبي، وحماسة فتوة وعواطف أثرية، وفي الإسلام أناشيد جهاد، وثوران عصبية، وأطماع حياة. ثم استحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية، فظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما عبث شباب، وأغاني طرب، ومظاهر ترف. ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل في أوساطها فبدأ في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وأمثالهم دروس تجربة، ونتائج حكمة، وخواطر فلسفة. ثم أدركه الهرم في أواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعة، وخرف شيخوخة، ومعالجة روح. أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلها في علمه.

نماذج من الشعر العباسي

الحماسة:

قال أبو فراس الحمداني:

ولما ثار سيف الدين تُرنا
أسنته إذا لاقى طعانا
دعانا والأسنة مُشْرَعَاتُ
صنائع فاق صانعها ففاقت
وكنا كالسهام إذا أصابت
فلما اشتدت الهيجاء كنا
وأمنع جانباً وأعزّ جاراً
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً

وقال أبو الطيب المتنبي:

عش عزيزاً أو مُتٌ وأنت كريمٌ
فرؤوس الرماح أذهب للغيد
لا كما قد حيت غير حميدٍ
فأطلب العزفي لظي ودع الذل (م)

المدح:

قال أبو تمام:

بمهدّي بن أصرم عاد عُودي
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً
ونغمة مُعْتَفٍ يرجوه أحلى
جعلت الجود لآلٍ المساعي
ولم يحفظ مُضَاعَ المجد شيء
ولو صورت نفسك لم تزدها

وقال المتنبي:

قور بلوغ الغلام عندهم
كأنما يولد الندى معهم
إذا تولوا عداوة كشفوا
طعنُ نحور الكُماة لا الحلم
لا صغرُ عاذرٍ ولا هَرَمُ
وإن تولوا صنيعة كتّموا

أنهم أنعموا وما علموا
أونطقوا فالصواب والحكم
كأنها في نفوسهم شيم
فإنه في الكرام مُتهم

تظن من كثرة اعتذارهم
إن بَرَقوا فالحتوف حاضرة
تشرق أعراضهم وأوجههم
أعيدكم من صُروف دهر كمر

وقال ابن الرومي :

ل آراؤه عند ضيق الحيل
ولو كان سيفاً لكان الأجل
لأغنى النفوس وأفنى الأمل

كأن مواهبه في المحو
فلو كان غيثاً لعم البلاد
ولو كان يعطى على قدره

الرثاء :

قال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

سقتك الغواصي مريعاً ثم مريعاً
من الأرض خطت للسماحة مضجعا
وقد كان منه البر والبحر مترعاً!
ولو كان حياً ضمقت حتى تصدعا!
كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً
وأصبح عزين المكارم أجدعاً

المأ على معن وقولاً لقبه
فيا قبر معن أنت أول حفرة
ويا قبر معن كيف وارت جوده
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
فتى عيش في معرفه بعد موته
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثي زوجته :

بُعيد الكرى عيناه تتسكبان؟
بيبتان تحت الليل يتتجيان
بلا بل قلب دائم الخفقان
أداوي بهذا الدمع ما تريان
جليد، فمن بالصبر لابن ثمان؟
ولا يأتي بالناس في الحدثان
ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
فبش إذن ما في غد تعداني

ألا من رأى الطفل المفارق أمه
رأى كل أم وابنها غير أمه
وبات وحيداً في الفراش تجنه
فلا تلحيانى إن بكيت فإنما
فهني عزمت الصبر عنها لأنني
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة
فلم أر كالأقدار كيف تصييني
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي

وقال المتنبي يرثي أخت سيف الدولة :

فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا

الهجاء :

قال مسلم بن الوليد :

والمدح عنك كما علمت جليل
عرض عززت به وأنت ذليل

أما الهجاء فمدح عرضك دونه
فأذهب فأنت طليق عرضك إنه
وقال أبو تمام :

فكأنها في غربة وإسار
كتضاؤل الحسنة في الأظمار

كم نعمة لله كانت عنده
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت

وقال ابن الرومي :

وليس بباق ولا خالد
تنفس من منخر واحد

يقتر عيسى على نفسه
فلو يستطيع لتقتيره

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي :

أو خانه فله في مصر تمهيد؟
فالحر مستعبد والعبد معبود!
حتى بضمن وما تفنى العناقيد
لو أنه في ثياب الحر مولود
إن العبيد لأنجاس مناكيد
أقومه البيض أم آباؤه الصيّد؟
أم قدره وهو بالمفلسين مردود؟
عن الجميل فكيف الخصية السود؟

أكلما أعتال عبدُ السوء سيّد
صار الخصيُّ إمام الأبقين بها
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
العبد ليس لحر صالح بأخ
لا تشتر العبد إلا والعصا معه
من علم الأسود المخصيِّ مكْرمة؟
أم أذنه في يد النخاس داميةٌ
وذاك أن الفحول البيض عاجزة

وقال ابن لنكك :

صارت عليّ الأرض كالخاتم
لم يخرجوا بعدُ إلى العالم
لأنهم عارٌ عليّ آدم

وعصبةٍ لما توسطهم
كأنهم من سوء أفهامهم
يضحك إبليسُ سروراً بهم

الوصف :

قال البخاري من قصيدته في وصف إيوان كسرى :

وترفعتُ عن جدًا كل جيس
رُ التماساً منه لتعسي ونكسي
طففتها الأيام تطفيف نجس
لا هواه مع الأخص الأخص

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وتماسكت حين زعزعتني الده
بلغ من صباية العيش عندي
وكان الزمان أصبح محمو

واشترائي العراق خُطة غُبْنٍ
ولقد رابني نَبُو ابن عمي
وإذا ما جُفيت كنت حَريباً
حضرت رَحلي الهموم فوجهـ
أَتسلى عن الحظوظ وآسى
ذَكَرْتَنِيهِمُ الخُطوب التوالي
وَهُمُ خافضون في ظل عال
مُغلق بابهُ على جبل القِيـ
جِلَلٍ لم تكن كأطلال سُعدي
ومَسَاعٍ لَوْلَا المُحَاباة مني
نقل الدهرُ عهدهن عن الجد
فكأن الجرماز من عدم الأند
لوتراه علمت أن الليالي
وهو ينيك عن عجائب قوم
وإذا ما رأيت صورة أنطا
والمنايا موائل وأنو شر
وعراك الرِّجال بَيْن يَدِيهِ
من مشيح يهوي بعامل رمح
تصف العينُ أنهم جدُّ أحيـ
يغتلي فيهمُ ارتيابي حتى
قد سقاني ولم يُصَرِّد أبو الغو
من مُدَامٍ تَقُولُهَا هي نَجْمُ
وتراها إذا أجدت سرُّورا
أفرغت في الزجاج كلِّ قلبٍ
وتوهمت أن كسرى أبرويـ
حُلْمٌ مطبقي على الشكِّ عيني
وكأن الإيوان من عجب الصند
يتظنني من الكأبة إن يبـ
مزعجاً بالفراق عن أنس إلف
عكست حظّه الليالي وبات الـ
فهو يُبدي تجلداً وعليه

بعد بيعي الشّام بيعة وكس
بعد لين من جانبيه وأنس
أن أرى غير مُصبح حيث أمسي
ت إلى أبيض المدائن عَنسي
لمحل من آل ساسان دَرَس
ولقد تُذكر الخطوب وتُسي
مشرف يُحسِرُ العيون ويخسي
ق إلى دارتي خِلاط ومكس
في قفار من البساسب مُلس
لم تَطِقْهَا مَسْعاة عنس وعبس
لُدّة حتى غدون أنضاء لُبس
س وإخلاقه بَنِيّة رمس
جعلت فيه مأتماً بعد عرس
لا يُشاب البيان فيهم بليس
كَيّة ارتعت بين روم وفرس
وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في خفوت منهم وإغماض جرس
ومُليح من السنان بترس
ء لهم بينهم إشارة خرس
تتقراهم يدي بلمس
ث علي العسكرين شربة خلس
أضوا الليل أو مُجاجة شمس
وارتياحاً للشارب المَتحسي
فهي محبوبّة إلى كلِّ نفس
ز معاطي والبُلْهَبْد أنسي
أم أمانٍ غيرن ظني وحدي
عة جَوْبٍ في جنب أزعن جَلَس
مد لعيني مُصْبِح أو مُمَسّي
عز أو مُرَهَقاً بتطليق عرس
مُشتري فيه وهو كوكب نحس
كلُّكُل من كلاكِل الدهر مُرسي

لم يَعْبَهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الْيَدِي
مَشْمَخَرٌ تَعْلُولُهُ شُرُفَاتُ
لَابَسَاتٍ مِنَ الْبِيَاضِ فَمَا تَبَّ
لَيْسَ يُذْرَى أَصْنَعُ إِنْ سَ لَجِنِ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ
فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقُو
وَكَأَنَّ الْوَفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَاصِي
وَكَأَنَّ الْإِلْقَاءَ أَوَّلَ مَنْ أَمَّ
عُمِّرَتْ لِلْسُرُورِ دَهْرًا فَصَارَتْ
فَلَهَا أَنْ أَعْيِنَهَا بِدُمُوعِ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ نَعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
أَيَّدُوا مَلَكْنَا وَشَدُّوا قَوَاهُ
وَأَعَانُوا عَلَيَّ كِتَابِي أَرِيَا
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ أَكَلْفِ بِالْأَشْ

بَاجٍ وَاسْتَلَّ مِنْ سِتُورِ الدَّمَقْسِ
رَفَعْتُ فِي رِءُوسِ رِضْوَى وَقُدْسِ
صَرُّ مِنْهَا إِلَّا غَلَائِلَ بُرْسِ
سَكَنُوهُ أَمْ صَنَعُ جِنِّ لِإِنْسِ
يَكُ بَانِيهِ فِي الْمَلُوكِ بِنَكْسِ
مَ إِذَا مَا بَلَغْتَ آخِرَ حَسِي
مِنْ وَقُوفِ خَلْفِ الزَّحَامِ وَخُنْسِ
رَ يُرْجَعُنَ بَيْنَ حَوِ وَوَلْعَسِ
سَ وَوَشَكِّ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ
لِلتَعَزِّي رِبَاعِهِمُ وَالتَّأْسِي
مُوقِفَاتٍ عَلَيَّ الصَّبَابَةِ حُبْسِ
بِاقْتِرَابِ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسِ جِنْسِي
غَرَسُوا مِنْ زَكَائِهَا خَيْرَ غَرَسِ
بِكُمَاةٍ تَحْتَ السَّنُورِ حُمْسِ
طَ بَطْعُنَ عَلَيَّ النَّحُورِ وَدَعْسِ
رَافِ طَرًّا مِنْ كُلِّ سِنَخٍ وَأَسِّ

وقالت إحدى شواعر الأندلس تصف وادي آش :

وقانا لفحة الرماد واد
حللنا دوحه فحننا علينا
وأرشفنا على ظمأ زلالا
تروع حصاه حالية العذارى
يصد الشمس أنى واجهتنا

سقاء مضاعف الغيث العميم
حنو المرضعات على الفطيم
الذ من المدامة للنديم
فتلمس جانب العقد العظيم
فيحجبها ويأذن للنسيم

الحكم والأمثال :

قال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
فعيش واحداً أو صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
مقارف ذنب مرة ومجانبه
ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه

وقال مسلم بن الوليد :

حسبي بما أبدت الأيام تجربةً
دلت على عيبتها الدنيا وصدقها

سعى علي بكأسيتها الجديدان
ما استرجع الدهر مما كان أعطاني

ما كنت أدخر الشكوى لحادثة

وقال أبو العتاهية :

الصمت أجمل بالفتى
لا خير في حشو الكلا
كل امرئ في نفسه

وقال أبو تمام :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتَهُ
وَإِذَا طَرَبْتَ إِلَى الْمَدَامِ شَرِبْتَ مِنْ
وَتَرَاهُ يَصْغِي لِلْحَدِيثِ بِقَلْبِهِ

وقال البحري :

وَتَرِبْتُ الْقَوْمَ ثُمَّ ظَنَنْتُ فِيهِمْ
فَمَا خُرِقُ السَّفِيهِ وَإِنْ تَعَدَّى
مَتَى أَخْرَجْتَ ذَا كَرَمٍ تَخْطَى

وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد
فإن الداء أكثر ما تراه
وما اللجج الملاح بمزويات

وقال المتنبّي :

إنّ لفي زمن ترك القبيح به
لولا المشقة ساد الناس كلهم
وإنما يبلغ الإنسان طاقته
ذكر الفتى عمره الثاني، وحاجته

الاعتذار والاستعفاف :

قال علي بن الجهم يعتذر للمتوكل :
عفا الله عنك الأحرمة
لئن جلت ذنب ولم أعتمد
أم تر عبداً عدا طوره
ومفسد أمر تلافيته
أقلّي أقالك من لم يزل

حتى ابتلى الدهر أسراري فأشكاني

من منطق في غير جينه
م إذ اهتديت إلى عيونه
أعلى وأشرف من قرينه

وجهلت كان الحلم رذ جوابه
أخلاقه وسكرت من آدابه
وبسمعه ولعله أدري به!

ظنوناً لست فيها بالحكيم
بأبلغ فيك من حقد الحلیم
إليك ببعض أخلاق اللثيم

فلا تستكثرن من الصحاب
يحول من الطعام أو الشراب
وتلقى الرّي في النطف العذاب

من أكثر الناس إحسان وإجمال
الجود يفقر والأقدام قتال
ما كل ماشية بالرحل شمال
ماقاته، وفضول العيش أشغال

تجود بعفوك أن أبعدا
لأنت أجل وأعلي يدا
ومولى عفا ورشيداً هدى؟
فعاد فأصلح ما أفسدا
يقيك ويصرف عنك الردى

وقال البحري :

ونائبة أوشكت أن تنوبا
وأوليتني بعد بشر قطوبا
وما كنت أعهد ظني كذوبا
أذم الزمان وأشكو الخطوبا
طرقاً ومرعأي محلاً جديبا!
أفاض الدموع وأشجى القلوبا
نَ خالجنى الشك في أن أتوبا
كُ إمَّا بَعِيداً وإمَّا قَرِيباً
وأنظر عطفك حتى يثوبا

فَدَيْنَاكَ مِنْ أَيْ خَطْبِ عَرَى
وَإِنْ كَانَ رَأْيُكَ قَدْ خَالَ فِيَّ
أَكْذَبُ نَفْسِي بِأَنْ قَدْ سَخَطْتَ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطاً لَمْ أَكُنْ
أَيُّصَبِحُ وَرِدِّي فِي سَاخِطِكَ
وَمَا كَانَ سَخَطُكَ إِلَّا الْفِرَاقُ
وَلَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ ذَنْباً لَمَا كَا
سَأَصْبِرُ حَتَّى أَلَاقِي رِضَا
أَرَأَيْتَ رَأْيَكَ حَتَّى يَصْحَ

وقال سعيد بن حميد :

أتيت ذنباً، فغير مُعتمد
فلا يرى قطعها من الرشد

لم آت ذنباً، فإن زعمت بأن
قد تطرف الكف عين صاحبها

ومن قصيدة للمتنبي يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفر بهم :
تَخُوفُ أَنْ تَفْتَشَهُ السَّحَابُ
كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ
تُصِيبُهُمْ فَيُؤَلِّمُكَ الْمَصَابُ؟
فَإِنَّ الرَّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ
إِذَا تَدَعَوْ لِحَادِثَةِ أَجَابُوا
بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَلَكِنْ رُبَّمَا خَفِيَ الصَّوَابُ
وَكَمْ بَعْدَ مُوَلَّدِهِ اقْتِرَابُ
وَحَلْ بَغِيرِ جَارِمِهِ الْعِقَابُ

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاءِ حَتَّى
يَهْزِ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ
وَكَيْفَ يَتَمُّ بِأَسْكَ فِي أَنْاسِ
تَرْفُقُ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ
وَإِنَّهُمْ عَبِيدُكَ حَيْثُ كَانُوا
وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَليَسُوا
وَمَا جَهَلْتَ أَيْدِيكَ الْبَوَادِي
وَكَمْ ذَنْبٌ مُوَلَّدُهُ دَلَالُ
وَجُرْمٌ جَرَّهُ سَفَهَاءُ قَوْمُ

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع، وحمي ذمار، ومسجل محامد؛ وفي الدولة الأموية كان داعية دين، ودعامة مُلك، وناصر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة، وسمير أمير، وأليف كأس، وصرير غانية. وكان أكثر شعراء بغداد في صدر هذا العصر من الموالي الذين أطاعوا العرب كرهاً، واعتقدوا الإسلام رياءً، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون، وأذاعوا في الناس الزندقة والشك، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعبقریات المأثورة، كمطيع بن إلياس، وحماد عجرد، وحسين بن الضحاك، وبشار بن برد، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبان بن عبد الحميد، وأبي العتاهية، وأبي دلامة، ومروان بن أبي حفصة، وعباس بن الأحنف، وعلي بن الجهم، ودعبل الخزاعي، والعسكوك.

شعراء بغداد

٣٨ - بشار بن برد

٧١٤ - ٧٨٤ م

٩٥ - ١٦٧ هـ

نشأته وحياته :

هو بشار بن برد بن يربوخ العبليّ بالولاء كنيته أبو معاذ ولقبه المرعّث لأنه كان في

٣٨ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٤٧، ٤٨، والشعر والشعراء: ص ٤٧٦ - ٤٧٩، وطبقات الشعراء: ص ٢ - ٦، (طبعة ثانية) ص ٢١ - ٣١، والأغاني: ٣/١٣٥ - ٢٥٠، وزهر الآداب، =

أذنيه رُعتة، «والرعتة القرط». أصل أبيه من فرس طخارستان من سبي الملهب بن أبي صفرة، وهبه لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها. ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم من الشعراء. فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لو لا تعديه بالهجاء، وتعرضه للنساء، وهتكه ستر الحشمة، حتى نقم الناس ذلك منه، وتمنوا موته صوتاً للعذارى وغيره على المخدرات. قال مالك بن دينار. «ما شئء أذعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد»، ودخل فريق من الغُيرِ على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله، فقال: «بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب» وأمر به، فلما جاء قال له: «والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتين على روحك»، فكان بشار بعد ذلك إذا أراد الغزل ذكره أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من اللهو وحديث النساء.

ولما توقع بشار وتهتك، ولم يردعه تهديد المهدي له، ولا زراية الناس عليه، سعي به ثانية إلى الخليفة ورُمي عنده بكل نقيصة. وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه، فهجاه بأبيات منها:

بني أمية هبوا أطال نومكم إن الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزقِّ والعود

ويبلغ الخليفة ذلك، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط، فضربه حتى مات سنة ١٦٧، وقد أوفى على السبعين.

صفته وأخلاقه:

ولد بشار أكمةً فما رأى الدنيا قط. على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء، كقوله:

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

وكان ضخم الجثة، مفرط الطول، مجذور الوجه، جاحظ الحدقين، قد تغشاهما لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً. قالت له امرأة ذات يوم: لا أدري لِمَ يهابك

للحصري، انظر فهرسه، والموشح: ص ٢٤٦ - ٢٥٠ وسمط اللاليء: ص ١٩٦، ١٩٧، ونكت الهميسان، ص ١٢٥ - ١٣٠ وخزانة الأدب: ٩٦/١ - ٩٧، والأعلام، للزركلي ٥٢/٢، ومعجم المؤلفين: ٤٤/٣ - ٤٥.

الناس مع قبح صورتك فأجابها: ليس من حسنه يُهاب الأسد. ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس، فقال له: يا أبا معاذ، من القائل:

إن في برديَّ جسماً ناحلاً لوتوكأت عليه لأنهدم

قال: أنا. قال: من القائل أيضاً:

في حُلتي جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال: أنا، قال حملك على هذا الكذب؟ واللّه إني لأرى أن لو بعث اللّه الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك!

وكان بشار متوقد الذكاء، حاضر الجواب، صادق الحسن، بذِيء اللسان، كثير المجون، مغموز الدين، يؤمن بالرجعة ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وإبائه السجود لآدم في مثل قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاد صفق بيديه وتحنح وبصق يميناً وشمالاً ثم ينشد!

شعره:

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه. وقد أدرك جريراً وهجاه وقال هجوت جريراً فاستصغرنى وأعرض عني، ولو رد علي لكنت أشعر الناس. وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد. وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم زاد عليها. ورواة الشعر ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين، وأسبقهم إلى المجون البذيء والغزل الرقيق، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضرة، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث. فهو في المولدين كامرئ القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابعة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشي والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتمييز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال: «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومزدوج وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والإختراع المتفنين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه».

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعاؤها، وافتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه، وينعمن بحديثه، ويتغنين بشعره. فهوى جارية منهن تسمى عبدة، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة.

عيوب شعره:

لا يسن لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان، ولم

يبق من اثني عشر ألف قصيد إلا قطع مختارة منتشرة في الكتب وكل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من المجون، وتكميله القافية إذا أعوزته بالفاظ لا حقيقة لها، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته:

رَبَابَةٌ رِبَةٌ الْبَيْتِ تَصَبُّ الْخَلِّ فِي الرَّيْبِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

وقوله:

إن سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ربح البصل

ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالاً تقتضيه، وعن مثل الثاني بأنه قاله في صباه.

نموذج من شعره

من قوله في الغزل:

يزهدني في حب عبدة مغشراً فقلت دعوا قلبي وما آختر وأرتضى
قلوبهم فيها مخالفة قلبي فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب

وقوله:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم
والأذن تعشق قبل العين أحياناً الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقوله:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم
نفسى يا عبد عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسماً ناحلاً لوتوكأت عليه لأنهدم

ومن أبياته السائرة قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك، فإن الحب أقصاني

وقوله:

أنا والله أشتهي سحر عيني لك وأخشى مصارع العشاق
وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر: طبع علي ما في غير مخير
طبع علي ما في غير مخير وقصر علمي أن أنال المغيبا
أريد فلا أعطى، أعطي ولم أرد

ومن قوله في الوصف والحماسة :

إذا الملكُ الجبارُ صَعَّرَ خَدَّهُ
وأرَعَنَ يَغشى الشَّمْسَ لَوْنُ حديدِه
تغصُّ به الأرضُ الفُضَاءُ إذا غدا
ركبنا له جَهْرًا بكلِّ مثقف
كأنَّ مشار النَّعَمِ فوق رؤوسنا
مَشِينًا إليه بالسيفِ نعاتبه
وتحبُّسُ أبصارَ الكِماءِ كِثابَهُ
تزاجِمُ أركانَ الجبالِ مَنابِهِ
وأبيضُ تستسقي الدِّماءِ مضاربه
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبِه

٣٩ - أبو العتاهية

٧٤٨ - ٨٢٦ م

١٣٠ - ٢١١ هـ

نشأته وحياته :

هو إسماعيل بن القاسم بن سُويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية ولد بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة علي صناعة أهله، وكانوا باعة جرار. فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلاً في شوارع الكوفة يبيعها. إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقرىض، نزوعاً إلى الأدب، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه وربما حدّث ببعض الحديث فيأتي موزوناً مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر. ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه، حتى إنه كان يقول عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت».

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة، أنه كان يجهل العروض جهلاً تاماً؛ وله أوزان لا تدخل فيه، ولا تجري في مجاربه ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستششدونه فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الحزف فيكتبونها فيه. وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونه حزفاً، ثم ما لبث أن صنعه درأ تقلدته الأمراء والكبراء، وجرى ذكره مجرى المثل، فانتقل الحزاف من بين الطين والماء، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظي لديه واختلط ببعض جواربه فعشق منهن جارية تسمى عتبة، أكثر فيها الغزل حتى همَّ المهدي أن

٣٩ - انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٠٥ - ١٠٨، وطبعة ثانية ص ٢٢٨ - ٢٣٤، ومروج الذهب: ٨٢/٧ - ٨٣، والأغاني: ١/٤ - ١١٢، ووفيات الأعيان: ١/٨٩ - ٩٢، وتاريخ بغداد: ٢٥٠/٦ - ٢٦٠، ولسان الميزان: ١/٤٢٦ - ٤٢٩، وأعيان الشيعة للعالمى ١٢/٨٠ - ١١٠.

يهبها إياه لو لا ضراعتها وكرهاتها له . فآلهاه عن ذكرها بالمال الكثير، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائحه له . وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليُذكر بذلك . فلما توفي المهدي واستخلف الهادي، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة، وأخذ في التزهّد والتخشّن، وأقبل على درس مذاهب المتكلمين وبعض الفرق، فكان يأخذ بكلِّ وقتاً ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه . ولم يأت عصر الرشيد حتى أُضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت . ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ألبتة . فأرغمه الرشيد عليه فأبى ، فضربه ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر . وكان بعد ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه . واتصلت شهرته بالآفاق وتغنّى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، وعنّى العلماء والرواة بجمع شعره، ولم تزل تلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ .

صفته وأخلاقه :

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جعدة وهيئة حسنة . وكان لبق اللسان مذبذب الرأي مفككاً معتل العقيدة لاضطرابه في الآراء وتلونه في النحل، مقتراً على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله . وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنفاد دون ذكر النشور والمعاد . وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه ووجه وعلمه وعقيدته .

شعره :

كان هذا الشاعر غزير البحر، لطيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتتان قليل التكلف، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول . وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال . ولقد قال الأصمعي : «إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والنوى» وذلك حق؛ لأنه كان يرسل الشعر رسالاً على البديهة من غير تعمل ولا تنقيح . على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس، وهذا كان يفضل على نفسه ويمتاز أبو العتاهية بقلّة تكلفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال . وحقته في ذلك أنه يرمي إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهوماً لدى الناس على السواء . وهو الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها . ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو في الحكيم وضرب الأمثال . وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل . أما غزله فخيره ما قال في عتبة وأحسن مدائحه ما قاله في المهدي والرشيد . ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله بن معن، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هُجر:

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً

إذ لم تك قتالاً؟
به كفيه لما نالا
وقد أصبحت بطلا

وما تصنع بالسيف
ولو مَدَّ إلى أذني
أرى قومك أبطالاً

درر من قلائده:

من قوله في الغزل:

بدمعها المنسكب السائل
أخرجها اليمُّ إلى الساحل
سواحراً أقبلن من بابل
ماذا تردون على السائل؟
قولاً جميلاً بدل النائل
حُشاشةً في بدنٍ ناجل
من شدة الوجد على القاتل!

عيني على عتبة مُنهلةً
كأنها من حسنها درة
كأن في فيها وفي طرفها
بسطت كفي نحوكم سائلاً
إن لم تنيلوه فقولوا له
لم يُبق مني جها ما خلا
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى

وقال للمهدي وقد توفيت ابنته:

وكلَّ غصن جديد فيهما بالي؟
كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي!
من لذَّة العيش يحكي لمعة الآل
ما شئت من عبر فيها وأمثال
أولاً، فما حيلة فيه لمحتال

ما للجديدين لا يئلي اختلافهما
يت من سلا عن حبيب بعد ميتته
كأن كلَّ نعيم أنت ذائقه
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى
ما حيلة الموت إلا كل صالحه

ومن قوله للرشيده وقد سجنه لاضرابه عن الغزل:

وما كنت توليني لعلك تذكر
ووجهك من ماء البشاشة يقطر
إليَّ بها في سالف الدهر تنظر

تذكر أمينَ الله حقي وحرمتي
لياليَ تدني منك بالقرب مجلسي
فمن لي بالعين التي كنت مرة

ومن قوله يعظ الرشيد:

ولو تسترت بالأبواب والحرَس
لكلِّ مدرِّع منا ومترس
إن السفينة لا تجري على اليبس

لا تأمن الموت في طرف ولا نفسٍ
واعلم بأن سهام الموت قاصدة
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

وقال:

فكلكم يصيرُ إلى ذهاب
أتيت وما تحيف وما تحابي
كما هجم المشيب على الشباب

لدوا للموت وابتنوا للحرب
ألا يا موت لم أر منك بداً
كأنك قد هجمت على مشيبي

٤٠ - أبو نواس

٧٦٢ - ٨١٥ م

١٤٥ - ١٩٩ هـ

نشأته وحياته :

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي . يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحمر كان له ولاء باليمن ، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس فقال له : أنت من أشرف اليمن فتكنَّ بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدأ أسماءهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال : ذو جدن وذو يزن وذو نواس فأختار ذاتوس فكانه بها ، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي وُلِدَ بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها . ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها . كان أبوه من جند مزوان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . ولما توفي لم يجد أبو نواس من يعوله ، فالتجأ إلى عطار يشتغل عنده . ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغوفاً بالأشعار والأخبار ، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء ، ويحضر حوار الشعراء ، ويتروم بالنظم . وقد سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه . فاتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفتنة وتوقد الذهن . فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها ، وستقول الشعر فأصبحني أخرجك ، فقال له ومن أنت؟ قال : أنا والبة بن الحباب . فقال له . نعم أنا والله في طلبك ، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لأخذ عنك . فسار أبو نواس معه ، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين ، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأعزهم علماً وأنبهم اسماً . وتأدى خبره إلى الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه وأتصل به ونفق عنده . وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقواد والكتاب فيحيونه وهو متكىء ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم . وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر ، فقد مدحه بقصائد رواها عنه المصريون دون العراقيين . ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فناده ومدحه ، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٩٩ ببغداد .

صفاته وأخلاقه :

كان أبو نواس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة فصيح

٤٠ - انظر ترجمته في : الشعر والشعراء : ص ٥٠١ - ٥٢٥ وتاريخ الطبري : ٧٠٤/٣ ، ٩٥٨ - ٩٦٧ ، ٩٧٢ - ٩٧٣ ، وأخبار الشعراء : ص ٣٣ ، ٣٩ وأشعار أولاد الخلفاء : ص ١٤٤ ، والموشح : ص ٢٦٣ - ٢٨٩ وشعراء الشيعة : ص ١١٣ ، والبداية والنهاية : ٢٢٧/١٠ - ٢٣٥ ، وتاريخ بغداد : =

اللسان، مدمناً للخمر، كثير الهزل والمجون، جامعاً لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النديم، مستخفاً بأمور الدين. وله مع الشعراء مناقضات كثيرة. ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول في القاهرة؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدمسوس عليه؛ لأن جل أشعاره في ذكر اللهو ووصف الخمر وما يتبع ذلك، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه، فألحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله. وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها.

منزلته في الشعر:

كان أبو نواس ضليعاً في اللغة راوياً للشعر والأخبار حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه. ولج أبواب الشعر كلها، إلا أنه أمتاز من كل الشعراء بفحش مجونه، وصراحة قوله، وصدقته في تصوير خليقته وبيئته، ووصفه الخمر وصفاً «لو سمعه الحسنان لهاجراً إليها وعكفا عليها» وأقل شعره مدائح، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين. ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى، وكثيراً ما ضرب على وتره، حتى قال الجاحظ: «بشار وأبو نواس معناهما واحد والعدة اثنان: بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن».

وكان أبو نواس مشهوراً بالتنقيح، يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقصر على الجيد منها، ولهذا قصر أكثر قصائده وهو على رفته ومجونه جزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، كاستهتاره في الفجور، وأسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر. ولا ريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصمة في تاريخ شعر العرب.

درر من قلائده:

قال في الخمر:

ما زلت أستلُّ رُوح الدِّنِّ في لَطْفٍ وأستقي دَمَه من جوف مجروح
حتى انثنت ولي روحان في جسدي والدِّنُّ منطرح جسماً بلا روح

وقال أيضاً:

مُعْتَقَةٌ صاغ المزاجُ لرأسها أكاليلَ دِرٍّ ما لمنظومها سلك

= ٤٣٦/٧ - ٤٤٩، ووفيات الأعيان: ١٦٨/١ - ١٧٢، وأعيان الشيعة: ٣/٢٤ - ٢٤٩، والأعلام، للزركلي ٢/٢٢٥ ومعجم المؤلفين: ٣/٣٠٠ - ٣٠١.

جرت حركات الدهر فوق سكونها
وقد خفيت من لطفها فكأنها

قال في وصف شاربها:

ومستطيل على الصهباء باكرها
فكل شيء رآه ظنه قدحاً

وقال في وصف الكأس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا
مساحب من جر الزقاق على الثرى
حبست بها صخبي فجددت عهدهم
تدار علينا الراح في عسجدية
قراراتها كسرى، وفي جنباتها
فللخمر ما زرت عليه جيوبها

وقال في عاقبة الجهالة:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وبلغت ما بلغ أمرؤ بشبابه

وقال في مدح الخصيب أمير مصر:

تقول التي من بيتها خف محملي
أما دون مصر للغنى متطلب
فقلت لها وأستعجلتها بوادر
دعيني أكثر حاسديك برحلة
فتى يشتري حسن الثناء بماله
فما جازه جود ولا حل دونه

وقال في وصف الدنيا:

ألا كل حي هالك وابن هالك
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

ومن أبياته التي يتمثل بها:

قوله:

لا أذود الطير عن شجر

وقوله:

ليس على الله بمستنكر

فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
بقايا يقين كاد يذهبها الشك

في فتية بأصطباح الراح حذاق
وكل شخص رآه ظنه الساقى

بها أثر منهم جديد ودارس
وأضغاث ريحان جني ويابس
وإني على أمثال تلك لحابس
حبتها بألوان التصاوير فارس
مهاً تدرّبها بالقسي الفوارس
وللماء ما دارت عليه القلائس

وأسمت سرح اللهو حيث أسلمو
فإذا عصارة كل ذاك أثم

عزيز علينا أن نراك تسيرو
بلى إن أسباب الغنى لكثير
جرت فجرى في إثرهن عبير
إلى بلد فيه الخصيب أمير
ويعلم أن الدائرات تدور
ولكن يسير الجود حيث يسير

وذو نسب في الهالكين عريق
له من عدو في ثياب صديق

قد بلوت المر من ثمره

أن يجمع العالم في واحد

وقوله:

صار جدا ما مزحت به رُبَّ جد ساقه اللعب

٤١ - ابن الرومي

٨٣٦ - ٨٩٧ م

٢٢١ - ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد الله بن علي رومي الأصل. ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبع. ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة. وقد حمل الناس بلسانه على بره وتكرمته، إما رغبة وإما رهبة.

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره. وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب. وكان شديد الطيرة يغلو فيها ويحتج لها ويقول: إن النبي ﷺ كان يحب الفأل ويكره الطيرة، وأنه مر برجل وهو يزحل ناقة له ويقول: (يا ملعونة)، فقال لا يصحبنا ملعون. وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقب. وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع، وهي في بعضهم أظهر، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال: على وجه من أصبحت اليوم؟ قال علي بن المسيب: دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان سنة ٢٧٨ وقد أهدى إلي عدة من الجوارى القيان؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة. فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره، وأقام باقي يومه لا يخرج. فلما كان بعد مدة يسيرة ستطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه القاسم ابن عبيد الله فجعل القيتين سبب ذلك وكتب إلي يقول:

أيها المُتَحْفِي بحول وُغُور	أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً	سأني فيك أيها الخُلْصَان
فتحك المهرجان بالحوال والعو	ر أَرَانَا مَا أَعْقَب المَهْرَجَان
كان من ذاك فُقدُك ابتك الحرّ	ة مصبوغَةً بها الأكفان
وتجافى مؤمّل لي جليل	لجّ فيه الجفاء والهجران

٤١ - انظر ترجمته في: أخبار أبي تمام: ص ٢٥، ٦٧، والأغاني: ٥٩/١٠، طبعة ثانية ٧٢/٢٠، والموشح: ص ٣٥٧-٣٥٨، وسمط اللاليء: ص ١٦٠-١٦١، والمتنظم: ١٦٥/٥-١٦٨، وإرشاد الأريب: ٢٢٤/١-٢٢٧، ومعاهد التنصيص: ١٠٨/١-١١٨.

ف إذا طيرة تلقتك وأنظر وأستمع ثم ما يقول الزمان
خبر الله أن مشامة كا نت لقوم وخبر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحة
اليوم كلمة سيئة. وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش. وكان هذا الشاعر فاحش الهجو
شديده حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك. وكان أبو الحسن القاسم بن عبيد الله وزير
المعتضد لا يفتأ حذراً منه خائفاً من هجائه، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه. وكان هذا
الوزير شريراً سفاكاً للدماء، فدس عليه من سمه في أكلة وهو حاضر. فلما أحس ابن الرومي
بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال إلى الموضع الذي بعثت بي إليه! فقال له سلم
على والدي. فقال ليس طريقي على النار. ولحق بمنزله فأقام به أياماً وكان الطيب يتردد
عليه فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، فقال وقد سأله نفظويه النحوي وهو يوجد بنفسه:

غلط الطيب عليّ غَلطة مُوردٍ عجزت موارده عن الإصدار
والناس يَلْحون الطيب وإنما غلط الطيب إصابة الأقدار

شعره:

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته، وينتقص لأجلها شاعريته كما يؤخذ من
قوله:

كم عائب كل شيءٍ وكلُّ ما فيه عيب
قد تُحسِنُ الروم شعراً ما أحسنته العُربُ
يا منكر المجد فيهم أليس منهم صهيب؟

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه، فإنه جمع إلى
تعمق الآريين في الفكر، تفوق الساميين في الخيال؛ وضم إلى دقة الروم في التصور، قوة
العرب في التصوير. فامتاز بتوليد المعنى وأستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره. ومن ثم
طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط. وقلما رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء
قصيدته في الحسن والقوة. ولا بن الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه، وقدرة
غريبة على العتاب والهجاء، لما كان يُمنى به من جفاء الأصدقاء، وإعراض الكبراء، لحدة
طبعه وضيق خلقه. وهو في منزلة أبي تمام والبحتري، وربما فضلهما أحياناً؛ لأنه قال في
كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم منازل
الفعول).

على أنه يسفأ أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ
وخشونته. ولو أنه نشأ نشأة عبد الله بن المعتز لما كان له معه ذكر في باب التشبيه والملح؛
فإن ابن الرومي أعلى كعباً منه في الشعر، ولكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال

له بعض معاصريه يلومه: لِمَ لا تشبه كتشبيهاً ابن المعتز؟ فقال له: أنشدني من قوله الذي
أَسْتَعَجَزْتَنِي عن مثله . فأنشده قوله في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة قد أنقلته حمولة من عنبر؟

فقال له زدي . فأنشده قوله في الأذريون، وهو زهر أصفر في سوطه حمل أسود:

كَانَ أَذْرِيونَهَا غَبَّ سَمَاءَ هَامِيَه
مِدَاهِنٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بِقَايَا غَالِيَه

فصاح واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن
خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس . فهل
لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً من الجود كناً والحواشي على الأرض
يطرزاها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مُبْيَض
كأذيال خُودٍ أقبلت في غلائل مُصَبَّغَةً والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل اللحم للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرهةً وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء فيه بالحجر

نموذج من شعره:

من قوله، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

أرأوكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجّون نجوم
منها معالم للهدى، ومصالح تجلو الدجى، والأخريات رجوم

ومن معانيه المخترعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بُعد المستقى عند الورود لما أطال رِشَاءَه

وكان هو يطيل

وقوله:

توددتُ حتى لم أجد متودداً وأفريت أقلامي عتاباً مُردداً
كأنني أستدني بك ابن حنيفة إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ومن بدائع قوله في الشباب:

رأيت سواد الرأس واللّهو تحته كليلاً وحُلُم بات رائيهِ ينعم

فلما اضمحل الليل زال نعيمه
وقوله في قصيدة يصف الشمس في الأصيل:
وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت
وودعت الدنيا لتقضي نحبها
ولاحظت النوار وهي مريضة
كما لاحظت عواده عين مدنف
وظلت عيون النور تخضل بالندى
يراعينها صوراً إليها روانيا
وبين إغضاء الفراق عليهما
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله
وغرد ريعي الذباب خلاله
فكانت أرائين الذباب هنا كمو

فلم يبق إلا عهده المتوهم
على الأفق الغربي ورأس مزعزعا
وشول باقي عمرها فتشعشعا
وقد وضعت خذاً إلى الأرض أضرعاً
توجع من أوصابه ما توجعا
كما أغرورقت عين الشجي لتدمعا
ويلحظن الحاظاً من الشجو خشعاً
كأنهما خلاً صفاء تودعا
من الشمس فاخضراخضراً مشعشعا
وغنى مغني الطير فيه وسجعا
كما حثت النشوان صنجا مشرعاً
على شدوات الطير ضرباً موقعا

٤٢ - ابن المعتز

٨٦٣ - ٩٠٩ م

٢٤٩ - ٢٩٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز، ولد في بيت الملك وموئل الخلافة، وربّي في باحة النعيم وموطن الجلالة، نشأ نبيل النفس دقيق الحس، قوي الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيقى. تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالمبرد وثعلب، وشارك في أكثر العلوم النقلية والعقلية وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه:

قليل هموم القلب إلا للذة
فإن تطلبه تقتنصه بحانة
ولست تراه سائلاً عن خليفة
يُنعم نفساً آذنت بالتنقل
وإلا ببستان وكرم مظلل
ولا قائلًا من يعزلون ومن يلي

٤٢ - انظر ترجمته في: أشعار أولاد الخلفاء: ص ١٠٧ - ١١٧، ومروج الذهب: ٢٤٩/٨ - ٢٥٤، والأغانى: ٢٧٤/١٠ - ٢٨٦، والفهرست: ص ١١٦، وتاريخ بغداد: ٩٥/١٠ - ١٠١، ووفيات الأعيان: ٣٢٣/١ - ٣٢٦، وفوات الوفيات: ٥٠٥/١ - ٥١١، ومعاهد التصيص: ٣٨/٢ - ٤٧، ومعجم المؤلفين: ١٥٤/٦ - ١٥٥.

ولا صائحاً كالعير في يوم لذة ينظر في تفضيل عثمان أو علي
 إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر وأستبداد المماليك وسوء سياستهم
 خلعوه وباعوا ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوماً وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاؤوا التسليم
 راضين. فتحزبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسته. وأختفى
 الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فتقحموا عليه الدار وأعتقلوه. ودفعه المقتدر
 إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره:

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي
 الأسلوب، لركة طبعه وسهولة خلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة رائع التشبيه، دقيق
 الوصف، لدقة حسه، ولطف شعوره، وأمتلاً ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق
 الحضارة. وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه، فبرىء من كذب المدح ولؤم
 الهجاء، وأنصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأُنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان. وله
 ولع بالبديع في حسن صَوغ وقلة تكلف. ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة
 اللفظ ودقة التخيّل.

مؤلفاته:

لابن المعتز كتاب البديع، وهو أول مصنف في هذا الفن، جمع فيه سبعة عشر نوعاً
 منه. وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب أشعار الملوك،
 وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الزهر والرياض، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود. وقد طبع
 ديوانه بالقاهرة في جزأين.

نموذج من شعره:

كن جاهلاً أو فتجاهل تُفزُ والعقل محروم يرى ما يرى
 للجهل في ذا الدهر جاءَ عريض كما ترى الوارثَ عينُ المريض

وقال:

أقتلا همي بصرفِ عُقارٍ إن للمكروه لذعة همّ
 وأتركا الدهرَ فما شاء كانا فإذا دام على المرء هانا

وقال:

ونسيم ييشر الأرض بالقَط ونسيم ييشر الأرض بالقَط
 ووجوه البلاد تنتظر الغيب ووجوه البلاد تنتظر الغيب
 ركذيل الغلالة المبلول ركذيل الغلالة المبلول
 ث انتظار المحب رَجُع الرسول ث انتظار المحب رَجُع الرسول

وقال :

وقد ضحك المشيب على الشباب
كما رُدَّ الحسامُ إلى القِرَابِ

أعاذلَ قد كبرت على العتاب
رددت إلى التقى نفسي فقررتُ

وقال في مقبره :

على قرب بعض في المحلة من بعض
فليس لهم حتى القيامة من فضّ

وسكان دار لا تزاور بينهم
كأن خواتيماً من الطين فوقهم

وقال :

جُرْم فلم يضرُّرني الحنقُ
نار الذبالة وهي تحترق

كم حاسد حنق عليّ بلا
متضحك نحوي كما ضحكت

وقال :

يهتك من أنواره الجندسا
يحصد من زهر الدجى نرجسا

انظر إلى حُسن هلال بد
كمنجل قد صيغ من فضة

وقال :

ليس يرى شيئاً فيأباه
ويرحم القُبْح فيهواه

قلبي وثاب إلى ذا وذا
يهيم بالحُسن كما ينبغي

وقال :

في جسد من لؤلؤ رطب
برحت حتى أقتص من قلبي

من لي بقلب صيغ من صخرة
جرحت خديه بلحظي فما

وقال :

وقضيتُ غيماً مرة ورشد
قد كان في ليل الشباب رقد

ولقد قضت نفسي مآربها
ونهار شيب الرأس يوقظ من

وقال :

لتجمع مني نظرة ثم أطرق
تمد إليه جيدها وهي تفرق

واني على إشفاق عيني من البكا
كما حلثت عن ماء برد طريدة

وقال أيضاً وإشارته إلى الديك :

ر وإما على الدجى أسفا

صفق إما ارتياحة لسننا الفج

ويقال إن له هذا الموشح المشهور، ولا ندري إن كان ابتدعه أم أتبع فيه الأندلسيين :

أيها الساقى إليك المشتكى ! قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت في غرته
ويشرب الرّاح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الكأس إليه وأتكى وسقاني أربعاً في أربع

مالعيني عشيت بالنظر!
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت، فأسمع خبري:
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي!

غصن بان مال من حيث التوى
مات من بهواه من فرط الجوى
خفيق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى ويحّه! يبكي لما لم يقع!

ليس لي صبر، ولا لي جلد
يا لقومي عدلوا وأجتهدوا!
أنكروا شكواي مما أجد
مثل حالي حقه أن يشتكي؟ كمد اليأس وذل الطمع!
كبد حرّي، ودمع يكف
يذرف الدمع ولا يندرف
أيها المعرض عما أصف!
قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحبّ إنني مُدّعي

٤٣ - الشريف الرّضوي

٩٧٠-١٠١٣ م

٣٥٩-٤٠٤ هـ

نشأته وحياته:

وُلِدَ أبو الحسين محمد بن الحسين الموسوي ببغداد، ونشأ في حجر والده، ودرّس

٤٣ - انظر ترجمته في الرجال: ص ٣١٠-٣١١ وتاريخ بغداد: ٢/٢٤٦-٢٤٧، والمحمدون: =

العلم في طفولته؛ فبرع في الفقه والفرائض؛ وفاق في العلم والأدب، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين. فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبين سنة ٣٨٨، ثم إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم والحج بالناس.

وبقي في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه الله إليه في المحرم من سنة ٤٠٤ ودفن بداره في الكوخ.

صفته وأخلاقه:

كان الشريف أبي النفس عالي الهمة، سمّت به عزيمته إلى معالي الأمور فلم يجد من الأيام معيماً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة؛ حتى بلغ من تشده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلوات الملوك والأمراء، وأجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صلواتهم فما أستطاعوا.

شعره:

نهج الرضيّ في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفخامة المعنى. وشعره أشبه بشعر البحرّي إلا أنه غلب في الفخر والحماسة، وتنزه عن عبث الوليد ومجونه. قال الثعالبي: «وهو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق» ثم قال بعد ذلك: «ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه». وكان على مكانته في الشعر راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل. ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتاب في العربية؛ لأن نهج البلاغة هو في المحل الثاني من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبيانا.

مؤلفاته:

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين، وكتاباً آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ومن الناس من يميل إلى

= ص ٢٤٣ - ٢٤٤ وإنباه الرواة: ١١٤/٣ - ١١٥ ووفيات الأعيان: ٢/٢ - ٥، والوفاي بالوفيات: ٣٧٤/٢ - ٣٧٩، الأعلام، للزركلي ٣٢٩/٦، ومعجم المؤلفين: ٢٦١/١١ - ٢٦٢، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٩٠/٣ - ١٩٥.

أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهجر؛ ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمَشوب.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خطي البحري في مدح المتوكل:

لله يوم أطلعتك به العلا
لما سمت بك عزة مومونة
وبرزت في بُرد النبي وللهدي
وكان دارك جنة حباؤها الجا
في موقف تغضي العيون جلالة
وكانما فوق السرير وقد سما
والناس إما راجع متهيب
مالوا إليك محبة فتجمعوا
وطعنت في غرر الكلام بفيصل
وغرست في حب القلوب مودة
وأنا القريب إليك فيه ودونه
عظفاً أمير المؤمنين فإننا
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
إلا الخلافة ميزتك فإنني.

عَلَمًا يُزَاوِلُ بِالْعَيْونِ وَيُرَشِّقُ
كَالشَّمْسِ تَبْهَرُ بِالضِيَاءِ وَتَوْمِقُ
نُورٌ عَلَى أَسْرَارِ وَجْهِكَ مَشْرِقُ
دِيٍّ أَوْ أَنْمَاطِهَا الْإِسْتَبْرَقُ
فِيهِ وَيَعْتَرِ بِالكَلَامِ الْمَنْطِقُ
أَسَدٌ عَلَى نَشْرَاتِ غَابِ مَطْرَقُ
مِمَّا رَأَى، أَوْ طَالَعَ مَتَشَوِّقُ
وَرَأَوْا عَلَيْكَ مَهَابَةً فَتَفَرَّقُوا
لَا يَسْتَقْبِلُ بِهِ السِّنَنُ الْأَزْرَقُ
تَزْكُو عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَتَبُورِقُ
لِيَدِي عَدُوكَ طُودَ عَزْ أَعْنَقُ
فِي دُوحَةِ الْعَلِيَاءِ لَا نَتَفَرِّقُ
أَيْدَاءً، كِلَانَا فِي الْمَعَالِي مُعْرَقُ
أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْكَ مَطُوقُ

٤٤ - الطغرائي

١٠٦٣ - ١١٢٠ م

٤٥٥ - ٥١٣ هـ

نشأته وحياته:

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي نسبة إلى مهنته أول

٤٤ - انظر ترجمته في: النزهة: ٧٣/٢، وفوات الوفيات: ١٥٩/١، وكشف الظنون: ٦٨، والفهرس التمهيدي: ص ٥١٤، ٥١٥، والأعلام للزركلي: ٢٤٦/٢.

حياته . فقد كان يكتب الطغراء (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت السلطان وألقابه . ولد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل ، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمنشىء . فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصره لثانيهما أخذ الطغرائي أسيراً ، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله ، ومالاه عليه بعض حسدته من رؤوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة ٥١٣ .

شعره :

شعر الطغرائي عامر الأبيات ، متين القافية ، مختار اللفظ ، يغلب فيه الفخر والحكمة . ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة وروصانة الأسلوب . وله ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك . وخير ما فيه قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم ، وهي من عيون الشعر ومختاره . قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة له من العمل . وقد أفردھا العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير . قال في مطلعها :

أصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفضل زانتي لدى العطل
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس راد الضحى كالشمس في الطفل
ومنها :

عن المعالي ويغري المرء بالكسل
في الأرض أو سلماً في الجو فاعتزل
ركوبها وأقتنع منهن بالبلبل
والعز تحت رسيم الأيقن الذلل

حب السلامة يثنى هم صاحبه
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً
ودع غمار العلاء للمقدمين هلى
رضاً للذليل بخفض العيش مسكنه
وقال وقد رزق مولوداً على كبر :

أقر عيني ولكن زاد في فكري
لبان تأثيرها في صفحة الحجر

هذا الصغير الذي وافى على كبر
سبع وخمسون ولو مرت على حجر

ومن قوله في الفخر :

إذا ما سما بالمال كل مسود
فإني بحمد الله مبدأ سؤددي
فهلا بفضلي كائروني ومحتدي
يطول بها باعي وتسطو بها يدي
فأرغم أعدائي وأكبت حسدي
وأمن أن يعتادني كيد معتدي
أرى دونها وقع الحسام المهند

أبى الله أن أسمو بغير فضائلي
وإن كبرمت قبلي أوائل أسرتي
وما المال إلا عارة مستردة
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة
ولا كان لي حكم مطاع أجيزه
فأعذر أن فصرت في حق مجتد
أكفى ولا أكفى؟ وتلك غضاضة

من الحزم ألا يضجر المرء بالذي يعانیه من مكروهة فكأن قد
إذا جلدي في الأمر حان ولم يُعن مريرة عزمي ناب عنه تجلدي
ومن يستعين بالصبر نال مراده ولو بعد حين إنه خير مسعد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة، وقاعدة الملك، ومقر الجند، ومعقل الإسلام، ومناط الأمل. فشغلها أدب السيف عن أدب القلم، وألهاها عن حمل الكتاب حمل العلم وخلجتها خوالج الرياسة والسياسة عن رواية الأدب وقرض الشعر، فتخلت عنهما للعراق والحجاز، فزخرت مدنها بالشعراء، وغصت مجالسهما بالأدباء. وقد علمت كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة.

فلما أдал الله العباسيين من الأمويين والفرس من العرب، وبغداد من دمشق، فترت حركة الأدب في الشام، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب، وهم كما قال الثعالبي: «ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم» وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك مُمدِّح؛ فوطاً كنفه للأدباء والشعراء والعلماء، حتى (ليقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما أجمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها).

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحرّي في إشار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن الصاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها، وينهل من أدبها. ورؤى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال: «ما فتق قلبي، وشحد فهمي، وصقل ذهني وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وأمتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب».

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في العرب في أبي تمام والبحرّي والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالي في صدر هذا العصر.

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحي أدبهم، لا يتسع لهما صدر هذا المختصر.

٤٥ - أبو تمام

٨٠٤ - ٨٤٦ م

١٨٨ - ٢٣١ هـ

نشأته وحياته :

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق . ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه في خدمته . فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ويستقي من أدب علمائه ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء فيصافه التوفيق مرة ويخطئه أخرى ؛ حتى بلغ من الشعر مبلغاً لم يزاخمه فيه أحد من أهل عصره . وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب في أنحاء البلاد، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفياً ظل النعمة . فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالاً لم يُبق لغيره مجالاً ، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهماً بالشعر في حياته . ثم اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين .

صفاته وأخلاقه :

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحاً حلوا الكلام فيه تَمْتمة يسيرة . وكان ذكي الطبع حاضر البديهة قوي الذاكرة قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات . وكتاباً الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك . ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها :
ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربع الأدراس
ووصل إلى قوله فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضراً : الأمير فوق من وصفت . وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب . فأطرق أبو تمام قليلاً ثم قال على البديهة :
لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شرورا في الندى والبأس

٤٥ - انظر ترجمته في : طبقات الشعراء : طبعة أولى ص ١٣٣ - ١٣٥ وطبعة ثانية ص ٢٨٣ - ٢٨٧ ومروج الذهب : ١٥١/٧ - ١٦٦ ونزهة الألباء : ص ٢١٣ - ٢١٦ والموشح : ص ٣٠٣ - ٣٢٩ والرجال : ص ١٠٨ - ١٠٩ وسقط النلائي : ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ، وتهذيب ابن عساكر : ١٨/٤ - ٢٦ ، ومعجم المؤلفين : ١٨٣/٣ - ١٨٤ .

فالله قد ضربَ الأقلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنُّبراس
ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا. وقال الفيلسوف
للخليفة: منهما يطلب فأعطه، فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده،
ولا يعيش كثيراً: فولاه بريد الموصل.

شعره:

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين. جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين،
وظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها.
واستنبط من ذلك طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر
من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنائيات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد. وكأنه لما رأى
أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوحى الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم
له بعض واعتل عليه بعض، فصار كالكلف في صفحة البدر. ومع هذا قد سلم له من كلامه
جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون: معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها
من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي، ومهد لمن خلفه الطريق فسلكها المتنبئ
وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم. ولغلبة الحكمة عليه قيل: «أبو تمام والمتنبئ حكيمان،
والشاعر البحتري»، وقد كثر اختلاف الناس فيه؛ فمنهم من تعصب له وأفرط حتى فضله
على كل سلف وخلف. ومنهم من عمد إلى جيده فطواه، وإلى رديئه فرواه ولكن لسان
المدح كان أغلب، فقد فضله من الرؤساء والعظماء ما لا قبل للطاعنين عليه بهم. قال
محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة: يا أبا تمام إنك لتُحلي شعرك من
جواهر لفظك وبيد معانيك ما يزيد حسنا على بهيِّ الجواهر في أجياد الكواعب. وما يُدخر
لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة».

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمع
فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام. وقد أحسن في الاختيار جد الإحسان حتى
قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

نموذج من شعره:

من أبدع قصائده قوله:

غدت تستجير الدمر خوف نوى غد
وأنقذها من غمرة الموت أنه
فأجرى لها الإشفاق دمعاً وورداً
وعاد قتاداً عندها كلُّ مرقد
صدود فراق لا صدود تعمد
من الدم يجري فوق خد مورد

ويقول فيها في الحث على الاغتراب، ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق في كل بيت:
 ولكنني لم أحوِ وقرأ مجمعا
 ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً
 وطول مقام المرء في الحي مخلوق
 فإنني رأيت الشمس زبدت محبة
 ومن قوله:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
 كم منزل في الأرض يألفه الفتى
 وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي:

كذا فليجزل الخطب وليفدح الأمر
 تُوفيت الآمال بعد محمد
 ألا في سبيل الله من عطلت له
 فتى كلما فاضت عيون قبيلة
 فتى دهره شطران فيما ينوبه
 فتى مات بين الطعن والضرب موتة
 ومات حتى مات مضرب سيفه
 تردى ثياب الموت حمراً فما دجا
 وقال في المدح:

حوّل، لا فعالة مرتع الدّم (م)
 سرخ قوله إذا ما استمرت
 لا معنى بكل شيء ولا كل (م)
 ليس يعرّي عن حلة من طرازال
 وإذا كف راغب سلبته
 مامهأة الججال مسلوبة أظ
 واجد بالخليل من برحاء الشد
 كل شعب كنتم به آل وهب
 إن قلبي لكم لكا لكبد الحر
 وقال أيضاً:

إذا حركته هزة المجد غيرت
 يرى أفتح الأشياء أوبة أمل
 عطاياه أسماء الأمان الكواذب
 كسته يد المأمول حلة خائب

وأحسنَ من نورِ تفتحهِ الصُّبَا بياضِ العطايا في سوادِ المطالب

٤٦ - البحري

٨٢١ - ٨٩٧ م

٢٠٦ - ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو عبادة الوليد بن عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنج (بين حلب والفرات) سنة ٢٠٦ ونشأ في البادية بين قبائل طيٍّ وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب. ثم خرج إلى بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع. وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبرد وظل صنيعاً لأبي تمام يردد صده، ويترسم خطاه، وحبیب يرشده ويعضده لأنه طائي مثله، حتى قال له يوماً. «أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي»، فصدق الله نبوءته. وأصبح البحري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً في الأدب والقريض. وأقام في العراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان وزيره إلى أن قتل على مشهد منه، فرجع بعدئذ إلى منج. وكان يختلف أحياناً إلى سراة بغداد «وسراً من رأى» فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤.

صفاته وأخلاقه:

كان البحري على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأبخلهم على نفسه وغيره. وكان من أبغض الناس إنشاداً: يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري، ويهز رأسه مرة ومنكبيه أخرى، ويشير بكفه عند كل بيت ويقول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلاً: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ وهذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله. ولكنه كان منصفاً يعترف بالفضل لأهله ولا يدعي ما ليس له. قال له بعض الناس وقد سمع شعره: أنت أشعر من أبي تمام. فقال: ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوا، ولكنني والله تابع له، أخذت منه لائئد به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه!

٤٦ - انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٨٦ - ١٨٧، وطبعة ثانية ص ٣٩٤ - ٣٩٥، أخبار أبي تمام: ص ٦٦ - ٦٧، ١٠٥ - ١٠٦ وأخبار الشعراء: ص ٨١، والموشح: ص ٣٣٠ - ٣٤٣، وسمط اللاليء: ص ٢٧٩، ٤٢٧، وأمالي المرتضى: ١/٥٩٣ - ٥٩٥، ومعاهد التنصيص: ٢٣٤/١ - ٢٤٦.

شعره:

ترسّم البحترى خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى «وأراد أن يشعر فغنى» كما قال فيه ابن الأثير واستمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته، وإلى ذلك أشار المتنبى بقوله: «أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحترى»، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام. وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل. ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من الساقط الغث لكثرت، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف. وله غيره كتاب معاني الشعر وحماسة البحترى. وهي كحماسة أبي تمام، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه؛ وطبعت في بيروت.

نموذج من شعره:

من قوله في وصف بركة المتوكل:

كالخيل خارجة من جبل مجريها	تصّبُ فيها وفودُ الماء مُعجَلة
من السبائك تجري في مجاريها	كأنما الفضة البيضاء سائلة
مثل الجواشن مصقولا حواشيها	إذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا
وريق الغيث أحيانا يياكيها	فحاجب الشمس أحيانا يضحكها
ليلاً حسبت سماء رُكبت فيها	إذ النجوم تراءت في جوانبها

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنته بعيد الفطر:

وبسنة الله الرضيّة تفطر	بالبر صمت وأنت أفضل صائم
يوم أغر من الزمان مُشهر	فاتعم بيوم الفطر عينا إنه
لحب يحاط الدين فيه ويُنصر	أظهرت عز الملك فيه بجحفل
والبيض تلمع والأسنة تزهر	فالخيل تصهل والفوارس تدعي
والجو معتكر الجوانب أغبر	والأرض خاشعة تميد بثقلها
طوراً ويطفئها العجاج الأكر	والشمس طالعة توقد في الضحى
ذاك الدجى وانجاب ذاك العشير	حتى طلعت بنور وجهك فانجلي
يومى إليك بها وعين تنظر	فافتن فيك الناظرون فإصبغ

كروا بطلعتك النبيّ فهللوا
 حتى انتهيت إلى المصليّ لابسا
 ومشيت مشية خاشع متواضع
 فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما
 أبدت من فصل الخطاب بحكمة
 ووقفت في بُرد النبيّ مذكراً

ومن قوله في الطيف :

إذا ما الكرى أهدى إليّ خياله
 إذا انتزعته من يديّ انتباهة
 ولم أر مثليّنا ولا مثل شأننا

شفى قلبه التبريح أو نفع الصدى
 حسبت حبيبا راح منى أو غد
 نعدّب أيقاظا وننعم هجدا

٤٧ - المتنبّي

٩١٥ - ٩٦٥ م

٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

نشأته وحياته :

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين . كان أبوه سقاه بالكوفة، ثم سافر به صغير إلى الشام متنقلاً من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضلته، ضوامن لنُجحه، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتساباً للمجد .

وكان المتنبّي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمة طموحاً إلى المجد : بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته بالخلافة وهو لئذ العود حديث السن . وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه . فكتب إليه من السجن قصيدة منها :

أمالِك رقي ومن شأنه هبات اللّجين وعتق العبيد
 دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد

٤٧ - انظر ترجمته في : يتيمة الدهر : ١٢٦/١ - ٢٤٠ والفهرست ، لابن النديم ص ١٦٩ وتاريخ بغداد : ١٠٢/٤ - ١٠٥ ونزهة الألباء : ص ٣٦٦ - ٣٧٤ ، ووفيات الأعيان : ٤٤/١ - ٤٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ٣/ ٨٤٤ - ٨٤٧ .

دعوتك لما براني البلى وأوهن رجلِي ثقلُ الحديد
تَعَجَّلَ فيَّ وجوبَ الحدودِ وحَدَيَّ قبلَ وجوبِ السجودِ

فأطلقه . ولكن حب الرياسة لم يزل متمكناً من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابه وتضاعفت عقود عمره . وفي سنة ٣٢٣ أَدْعَى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه . ولما سئل عن النبي ﷺ قال : إنه بشر بمجيبِي وأخبر بنبوتي فقال : لا نبيُّ بعدي ، وأنا اسمي في السماء (لا) . وضم كلاما عارض به القرآن . فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية ، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه وتفرق عنه أصحابه . فطفق يتجشم أسفاراُ أبعد من أماله ، ولا زاد إلا صبره ، ولا عدة إلا بأسه ، كما يتجلى ذلك في مثل قوله :
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
وقوله :

ضاق صدري وطال في طلب الرزق ق قيامي وقل عنه قعودي
أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والي أنطاكية من قبل سيف الدولة وامتدحه ، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده ، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم . وأقعم وطابه ودرت له أخلافُ الدنيا على يده ، حتى كان من قوله فيه :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة ومن وجد الإحسان قيذاً تقيدا

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه إلى مصر في سنة ٣٤٦ . ومدح كافوراُ الإخشيدي وأبا شجاع . وأقام في مصر رداً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله . فما هو إلا أن قال :

أبا المسك ، هل في الكأس فضلُ أناله فيأني أغني منذ حين وتشرب

وقال :

وهل ناعفي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أمّلت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

حتى أوجس كافور منه خيفة ، لتعالیه في شعره وطموحه إلى الملك ، فزوى عنه وجهه ، فهجاه وقصد بغداد . ولم يمدح الوزير المهلبی لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره . ولكنه لم يجبههم ، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الفضل بن العميد فكتب إليه الوزير صاحب بن عباد

يستزيره بأصبهان طاماً أن يمدحه فلم يقم له وزناً وأمّ عضد الدولة بشيراز. فأوغر عليه قلب
الصاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته - وشن عليه هو وأشياعه حرباً قلمية،
وألّفوا الكتب في نكده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهاباً
بنفسه وإعجاباً بشعره.

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول
وثياب؛ ثم دس عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل
إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال إنه جهز
عليه فاتكاً الأسدي في قوم من بنى ضبة، فعرض له بالصفافية من سواد واقتتلا. فلما رأى
الدائرة عليه هم بالفرار. فقال له غلامه: يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:
الخيول والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ.

شعره:

المتنبي شاعر من شعراء المعاني، وفق بين الشعر والفلسفة؛ وجعل أكثر عنايته
بالمعنى؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته، وخرج به عن أساليب
العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي. ولقد حظي في شعره
بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبيب بالأعرابيات، وإجادة
التشبيه، وإرسال المثليين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع
المديح، وإيجاع الهجاء، وأخص ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه
برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاكل الناس وأهواء القلوب
وحقائق الوجود وأغراض الحياة لذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب، ومثلاً لكل
خاطب.

عيوب شعره:

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه وتبعد غايته منه فيطيش سهمه وقد
بلغ من إهماله اللفظ أن وقع بعض المساوئ، كاستكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال
الغريب، وقبح الطالع، ومخلفة القياس، وكثرة التفاوت في شعره، والخروج في المبالغة
إلى الإحالة، كقوله:
ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى الذمىك هو عقت بمولد نسلها حواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالي .

نموذج من شعره:

قال يشكو الزمان:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كيدي
يا ساقى أحمرفى كؤوسكما
أصخرة أنا؟ مالي لا تغيرني
إذا أردت كميّت الخمر صافية
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبها
أنى بما أباك منه محسود

وقال بفلسف:

نحن بنو الموت فما بالننا
تبخل أيدينا بأرواحنا
فهذه الأرواح من جوّه
لوفكر العاشق في منتهى
لم يُرقن الشمس في شرقه
يموت راعي الضأن في جهله
وربما زاد على عمره
وغاية المفرط في سلمه

وقال:

نصيبك في حياتك من حبيب
رمانى الدهرُ بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابتني سهام
وهان فما أبالي بالرزايا

وقال:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وتولوا بغصة كلهم من
وعناهم من أمره ما عنانا
ه وإن سرّ بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنيع لياليه
وكأننا لم يَرُضْ فينا بريب الدهر
كلما انبَتَ الزمان قناة
ومُراد النفوس أصغر من أن
غير أن الفتى يلاقي المنايا
ولو الحياة تبقى. لحي
وإذا لم يكن من الموت بُدٌ
وقال أيضاً:

زودينا من حسن وجهك ماداً
وصلينا نصلك في هذه الدد
م فحسن الوجوه حالٌ تحول
يا فإن المُقام فيها قليل

٤٨ - أبو فراس الحمداني

٩٣٢ - ٩٦٨ م

٣٢٠ - ٣٥٧ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة. ولد بمنبج وربي في حجر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان. فنشأ على خلال العظماء شجاعاً أبي النفس سليم الطبع، كريم الخلق، جامعاً بين أدبي السيف والقلم. وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه، فاصطنعه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرّة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم. وكان النصر حليفه في كل وقائعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانته الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعدرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، مُمثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته

٤٨ - انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ٤٨/١ - ١٠٣، وتهذيب ابن عساكر: ٤٣٩/٣ - ٤٤٢، وزبدة الحلب: ١٥٦/١ - ١٥٧، ووفيات الأعيان: ١٥٨/١ - ١٥٩، وسامى الدهان، مقدمة الديوان: ١٧/١ - ٢٥، ومعجم المؤلفين: ١٧٥/٣ - ١٧٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ٢٢٧/١ - ٢٣٢.

الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة . ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وجرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبعجلوه .

«ولما خرج قمر البيان من سِراره، وأطلق أسد الحرب من إسهاره»، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه . فتوفي سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه أبو المعالي، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لذن العود غض الإهاب .

صفاته وأخلاقه :

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أيباً سخياً معجباً بشعره، وبنفسه، كثير الفخر بأصله وقومه، عزوفاً عن الشراب والمجون، فبريء شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه . وهو القائل :

لئن خلق الأنام لجسوكأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يُخلق بنوحمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجدود

شعره :

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، إلا أن عليه رُواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز . وكان الصاحب بن عباد يقول . «بُدي الشعر بملك وختم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس . وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، وروميته أجل وأدل على فضله، فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج . وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب، فيكون أنم جلالاً وأشد روعة . وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبرير ويتجافى جانبه (فلا ينبري لمباراته، ولا يجتري على مجاراته، إنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيئاً له وإجلالاً لا إغفالاً) وهو زعم لا يطمئن عليه القلب، ولا يقول به من عرف المتنبي .

نموذج من شعره :

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفة تردّ فيي جسم يعذب بالي

على عُصْنِ نائِي المسافَةِ عالي!
ويسكت محزون ويندب سالي
ولكن دمعي في الحوادث غالي

أَيَحْمَلُ محزونَ الفؤادِ قوادمَ
أَيُضْحِكُ مأسورَ وتبكي طليقة
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّة

ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه :

ومن أين للحر الكريم صحاب؟
ذئاباً على أجسادهن ثياب
بمفروق أغباناً حصى وتراب
نحكّم في آسادهن كلاب
لديّ ولا للمعتفين جناب
ولا ضربت لي بالعرء قباب
وكعب على علاتها وكلات
ولا دون مالي في الحوادث باب

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه
وقد صار هذا الناسُ إلا أقلهم
تغابيت عن قوم فظنوا غباوة
إلى الله أشكو أننا بمنازل
تمر الليالي ليس للنفع موضع
ولا أشد لي سرج على متن سابع
ستذكر أيامي نمير وعمار
أنا الجار لا زادي بطيء عليهم

ومنها:

لديه وما دون الكثير حجابُ
وذكرى مني في غيرها وطلاب
ثوابٌ ولا يُخشى عليه عقاب
وفي كل يوم لقيّة وخطاب
وللبحر حرلي زخرةً وعُباب!
أثاب بمُرّ العتب حين أثاب؟
وليتك ترضى والأنام غضاب!
وبيني وبين العالمين خراب!
وكل الذي فوق التراب تراب

وما زلت أرضى بالتقليل محبة
وأطلب إبقاء على الود أرضه
كذاك الوداد المحض لا يُرتجى له
وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع
فكيف وفيما بيننا مُلك قيصر
أمن بعد بذل النفس فيما تريده
فليتك تحلو والحياة مريرة
وليت الذي بيني وبينك عامر
إذا صح الود منك فالكل هين

٤٩ - أبو العلاء المعري

٩٧٣ - ١٠٥٧ م

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ

نشأته وحياته :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن ولد هذا

٤٩ - انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣٣/١، ومعجم الأدباء: ١٨١/١، وفهرست ابن خليفة:

الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين . فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة . فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابتضت اليمنى ؛ فنشأ ضريباً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوباً معصفاً وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقيه علوم اللسان العربي فتعلمها . وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم . ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم ، أو اختص دونه بفهم ، فانشى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد . وفي سنة ٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام ، فزار مكتبة طرابلس ، وعاج على اللاذقية ، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد . وبعد أن طوف في بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية . وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا لقاؤه ظمء إلى أده . فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطاً بعيداً . ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ . فأخذت آراؤه تظهر وتذيع . واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه . وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجيء على بعد المزار بنعي أمه ، وكان أبوه قد توفي قبلها ، فوجد عليها وجداً شديداً ، ونالت منه هذه النازلة . وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره ، فاضطربت حياته ، واختلفت أطواره وأعوزه المشفق والنصير . فنظر إلى العالم بمنظار أسود ، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠ فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه . وسمى نفسه رهن المحبسين : العمى والمنزل . وظل عاكفاً على التعليم والتأليف عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه ، قانعاً من الطعام والحلوى بالعدس والتين ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام ، راضياً من اللباس والفرش بغليظ القطن وحصير البردى . وحرم على نفسه الزواج ضناً بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة . ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩ ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبي عليّ (م) وما جنيت على أحد

ص ٣٤٣ ، ولسان الميزان : ٢٠٣/١ ، وإنباه اللرواة : ٤٦/١ ، وتمة اليتيمة : ص ٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية : ٣٧٩/١ ، وابن الوردي : ٣٥٧/١ ، والأعلام للزركلي : ١٥٧/١ .

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء إنسيّ الولادة وحشيّ الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب سخياً وفيّاً، قامعاً لشهوته، سيّء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم. فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة. وغيرهم يقول: إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكاً، فتارة يثبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

شعره:

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات فأما شعره في الشبية فكثير المبالغة، واضح التقليد بين التكلف، قلد فيه المتنبّي واستمد منه أكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجارى شعراء عصره في البديع. بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر.

وأما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فأثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة. والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة. وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شببته. فقد كان كثير المبالغة،

مفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يُعني القارئ وتطويل يمل؛ فربما كتب الرسالة إلى أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته :

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية، فلم يبق إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي، والفردوس المفقود لملتن لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وأنتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع، ثم عبث الوليد. وهو شرح ديوان البحرني وقد طبع في دمشق. وقد فقد كتاب الأيكة والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب، ومعجز أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك كثير.

نموذج من شعره :

قال يعني على الحكام استبدادهم بالرعية وعبثهم بمصالحها :

مُلَّ المَقَامُ فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وغدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة :

تباركت أنهارُ البلاد سوائح تباعدت وأوهام الحياة
هو الحظ غيرُ البيدِ سافٍ بأنفه هو الحظ غيرُ البيدِ سافٍ بأنفه
توهمت خيراً في الزمان وأهله توهمت خيراً في الزمان وأهله
فما النور نوار ولا الفجر جدول فما النور نوار ولا الفجر جدول

ومن قصيدة له في الرثاء :

صاح! هذي قبورنا تملأ الرُح صاح! هذي قبورنا تملأ الرُح
خفف الوطاء ما أظن أديم ال خفف الوطاء ما أظن أديم ال
وقبيحُ بنا وإن بَعُد العه وقبيحُ بنا وإن بَعُد العه
سر إن أستطعت في الهواء رويداً سر إن أستطعت في الهواء رويداً
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً
فأسأل الفرقدين عمن أحسَّا فأسأل الفرقدين عمن أحسَّا
كم أقاما على زوال نهار كم أقاما على زوال نهار

تعبُ كلها الحياة فما أء
إن حزناً في ساعة الموت أضعا
جب إلا من راغب في آزيداد
فُ سرور في ساعة الميلاد

وقال يعني على المتزهدين المرائين من أهل الدين :

رُويدك قد عُررتِ وأنت حر
يُحرم فيكم الصهباء صُبحاً
ويشربها على عَمَدِ مساءً
وفي لذاتها رهَنَ الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهي
فمن جهتين لا جهة أساء

وقال :

يحسن مرأى لبني آدم
ما فيهم برٌّ ولا ناسك
أفضل من أفضلهم صخرة
وكلهم في الذوق لا يعذب
إلا إلى نفع له يجذب
لا تظلم الناس ولا تكذب

وقال :

خفٌ ذنباً كما تخاف سرياً
والصُّلالُ التي تخاف رداها
صال ليث الشرى بظفر وناب
شرُّها في الرؤوس والأذنان

وقال :

عجبي للطبيب يُلحد في الخا
رُبُّ روح كطائر القفص المسـ
لق من بعد درسه التشريحا
جون ترُجو بموتها التسريحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أفلت صقر قریش من شرك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس . وكان المُلْك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية ؛ والبلاد تنتظر من يلُمها من شتات، ويحييها من مَوَات، ويجمعها من فرقة؛ فكان عبد الرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر . فاستولى عليها سنة ١٣٨ هـ بمعونة اليمنية . ونشر عَلم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسوِّدة في دمشق . وتعاقب على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام، حتى أصابهم داء الأمم فتفرقوا وتمزقوا، وأنحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف، كبني جهور في قرطبة، وابن عباد في أشبيلية، وابن الأفطس في بطليوس .

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط الموالى، ويعتزون بعصية الجنس، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم . ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم، صنَّع

بني العباس في أبناء الفرس . فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية، ونضج العقلية العربية، وأستعار النهضة الأدبية، وأزدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبناتها من العرب، لأن أوروبا يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة، وترسف في أغلال الأمية، فأقتبس الأسبان ثقافة العرب فأعتقدوا دينهم، وتكلموا لغتهم، وتعلموا أديبهم . وهجروا اللاتينية وآدابها حتى أنسوها، وحتى جأ بالشكوى من هذه الحال كاهن قرطبة ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى أضطروهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية .

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه، ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين؛ فشيّدوا المدارس الجامعة، وأنشأوا المكاتب العامة، ونشطوا حركة التأليف، وأذكوا نهضة الأدب ورفعوا مجد الفنون، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء . بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتماثلت بنائها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد، وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال: «إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى» . وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب . ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه . فلم تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى دبّ في خلافة بني مروان ديبب البلى والهزم، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فأضطلعوا به قليلاً ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم، ونازعوهم سلطانهم، وراوحوهم الفرنج متكاتفين فأستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة، حتى تمت الهزيمة وعم الجلاء بقرار أبي عبد الله محمد بن علي من غرناطة سنة ٨٩٨ هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة .

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلّم به إماماً من وصف شعرهم وذكر نفر من شعرائهم .

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفضله ونحلله، وإنما هي لمحة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه . فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة، والجواء المتغيرة، والمناظر

المختلفة، والأمطار المتصلة، والخمائل الجميلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الروية، والسهول الغنية، والجبال المؤزرة بعميم النبات، والمروج المطرزة بألوان الزهر؛ فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، ووسعوا دائرة الأدب، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه وتنوّقوا في معانيه، ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله، وذبحوه تدييح الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمة في البحور الخفيفة القصيرة، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقي الغناء. فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى، ثم تطور عند انحطاط الأدب وأضمحل أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية.

وصرّفوا الشعر في أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمزاح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع، ونظموا حوادث التاريخ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف: فوصفوا الأبنية والتمائيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأدوية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة. إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداع الموشح وتنوع القافية؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل الذي يرجع إليه، والقالب الذي يضرب عليه.

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي تصنع في اللفظ، وتعمل في الشكل، وليس فيه خيال رائق، ولا شعور صادق فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس. فإنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، بلفظ جيد وأسلوب أنيق، فظافروا على قرائمهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهيهِ الأنفس. وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة، ضرورياً شتى من الشعر، تالمدح والهجاء والغزل، كما أخذوا عنهم القافية وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها.

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقبت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لآتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم ولكن فاجأهم الانقسام، وداهمهم الخصام، فأنشقت عصاهم، وأنفصمت عراهم، ونضبت قرائحهم وأمحلّت عقولهم، وذهبوا كأس الدائر، سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل بن شرف القيرواني:
مطلّ الليل بوعدِ الفلّق
وتشكّي النجم طول الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى
فأستفاد الروض طيب العبق

جالَ من رَشَحِ الندى في عرق
فتساقطن سقوط الورق
أيقن النجم لها بالغرق
وأنمحي ذاك الدجى عن شفق
طارقاً عن سكن لم يُطرق
وهو مطلوب بباقي الرمق
وجفون الروض غرقى الحدق
وتثنى في وشاح قلىق
فتجلى فلق عن غسق
فحبا الخدَّ ببعض الشفق
وتجلى خدَّه بالرونق

وألاح الفجرُ خدَّ خَجِلا
جاوز الليل إلى أنجمه
وأستفاض الصبح فيها فيضة
فأنجلي ذاك السنا عن حلك
يأبى بعد الكرى طيفُ سرى
زارني والليل ناع سدَّفه
ودموع الطل تمرهبا الصبا
فتأبى في إزار ثابت
وتجلى وجهه عن شعره
نهب الصبح دجى ليلته
سلبت عيناه حدِّي سيفه

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر:

فكنا مع الليل زوارها
تذيع لأنفك أسرارها
فأجرت من الدن دينارها
مجيدُ الفراسة فأختارها
عصير الخمور وأعصارها
سنيها ويعرف خمارها
على قضب البان أقمارها
تشور فيقتل ثوارها
قيانُ تحرك أوتارها
وتلك تقبل مزمارها
حساب يد نقرت طارها
تريك من النار نوارها
وقد وزن العدل أقطارها

وراهبة أغلقت ديرها
هدانا إليها شذى قهوة
طرحت بميزانها درهمي
تفرس في شمسه طيها
فتى دارس الخمر حتى درى
يعدُّ لما شئت من قهوة
وعدنا إلى هالك أطلعت
يرى ملك اللهو فيها الهموم
وقد سكنت حركات الأسي
فهذي تعانق لي عودها
وراقصة لقطت رجلها
وقضب من الشمع مصغرة
كأن لها عمدا صفقت

إلى أن قال:

يهيِّج للنفس تذكراها
وكان بنو الظرف عمَّادها
فإني أحدث أخبارها
ء حسبت دموعي أنهارها

ذكرت صقلية والأسى
ومنزلة للتصابي خلت
فإن كنت أخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكا

وقال ابن هانيء يصف أكولاً :

يا ليت شعري ، إذا أومى إلى فمه
كأنها - وخبيث الزاد يضرمها -
تبارك الله ما أمضى أسنته
كأن بيت سلاح فيه مختزناً
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوي في يده
لف الجداء بأيديها وأرجلها
وغادر البظ من مثنى وواحدة
يخفّض الرز من قرن إلى قدم
كأنما كل ركن من طبائعه
كأنما في الحشا من حمل معدته
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرننا
نصحتكم ، فخذوا من شذقه وزراً

وقال المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمات :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة
يطآن في الطين والأقدام حافية
أفطرت في العيدلا عادت إساءته
قد كان دهرك إن تأمره ممثلاً
من بات بعدك في ملك يسرُّ به

وقال ابن دراج القسطلبي من قصيدة يصف وداعه لزوجه وولده الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هفا
تناشدني عهد المودة والهوى
عيمي بمروج الجواب ، ولفظه
تبوا ممنوع القلوب ومهدت
وطار جناح اليبين بي وهفت بها
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي
أسلط حر الهاجرات إذا سطا
وأستشق النكباء وهي لوافح

بصبري منه أنه وزفير
وفي المهد مبغوم النداء صغير
بموقع أهواء النفوس خبير
له أذرع محفوفة ونحور
جوانح من دعر الفراق تطير
عليّ ورقراق الشراب يemor
على حر وجهي والأصيل هجير
وأستوطني الرمضاء وهي تفور

وللذعر في سمع الجريء صفير
وأني على مضر الخطوب صبور

وللموت في عين الجبان تلون
لبان لها أني من اليبين جازع
وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

يجرح الدهر ويأسو
ء على الأمال ياس
لُ ويُرديك احتراس
والمقادير قياس
ولكم أكدي التماس!
عز ناس ذل ناس
فُ سَرَاةٌ وخساس
مُتعةٌ ذاك اللباس
واك في فهم إياس
من سنا رأيك لي في (م) غَسَقُ الخطب اقتباس
إن عهدي لك آس
ما أمتطت كَفَكُ كاس
إنما العيش اختلاس
لوا عن العهد وخاسوا؟
فأنتهابٌ وأنتهاس
لي، وللدئب أعتساس
ء من الصخر أنبجاس
سأً فللغيث أحتباس
ب فيوطأً ويُداس

ما على ظني باس
رُبما أشرف بالمر
ولقد ينجيك إغفا
والمحاذير سهام
ولكم أجدي قعودُ
وكذ الحكم: إذا ما
وبنو الأيام أخيا
نلبس الدنيا، ولكن
ياأبا حفص وما سا
من سنا رأيك لي في (م)
لا يكنْ عهدك وَرَدًا
وأدر ذكرى كأساً
وأغتنم صفو الليالي
ما ترى في معشر حا
أذُوبٌ هامت بلحامي
كلهم يسأل عن حا
إن قسا الدهر فللما
ولئن أمسيت محبو
ويقتُ المسك في التر

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقي:

خذ حديث الشوق عن نفسي وعن الدمع الذي همعا
ما ترى شوقي قد وقدا
وهما دمعي وأطردا
وأغتدي قلبي عليك سدي!
آه من ماء ومن قيس بين طرفي والحشا جُمعا!

بأبي ريم إذا سفرا
أطعت أزراره قمراً
فأحذروه كلما نظرا
فبالحاظ الجفون قسى أنا منها بعض من صرعاً
وقال بعضهم:

ما للمملوَّة من سكره لا يفيق
يا له سكرانا!
من غير خمر. ما للكئيب الممشوق
يندب الأوطانا
هل تستعاد، أيامنا بالخليج
وليالينا
أو يستفاد، من النسيم الأريج
مسك دارينا
وإد يكاد، حسن المكان البهيج
أن يحيينا
ونهر أطلُّه دوح عليه أنيق
مورق فينان
والمساء يحرى وعائم وغريق
من جنى الريحان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلي:

هل در ظبي الحمى أن قد حمى
فهو في حر وخفق مثل ما
قلب صب حله عن مكيس
لعبت الصبا بالقبس

يا بدوراً أطلعت يوم النوى
مالقبي في الهوى ذنب سوى
أجتني اللذات مكلوم الجوى
كلما أشكوه وجداً بسما
إذ يقيم القطر فيه مأتما
غوراً في نهج الغرر
منكم الحسن ومن عيني النظر
والتذاذي من حبيبي بالفكر
كالرُبي بالعارض المُنبجس
وهي من بهجتها في عُرس

غالبٌ لي غالبٌ بالتؤدّه بأبي أفديه من جاف رقيق
 ما رأينا مثل ثغر نضدّه أفحواناً عصرت منه رحيق
 أخذت عيناه منه العريده وفؤادي سكره ما إن يُفريق
 فاحم الجمّة معسول اللّمى أكحل اللحظ شهّي اللّعس
 وجهه يتلو الضحى مبتسما وهو من إغراضه في عبس

شعراء الأندلس

٥٠ - ابن عبد ربه

٨٦٠ - ٩٤٠ م

٢٤٦ - ٣٢٨ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأموي بالولاء، لأن جده كان مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء الأمويين بالأندلس. ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وأمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية، وطول الباع في الشعر والكتابة. قال ياقوت في معجمه: «وكان لأبي عمر بالعلم جلاله وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة، وأتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق، فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير إليه بالتفضيل إلا أنه غلب عليه الشعر» ثم أصيب في أعقاب عمره بالفالج وتوفي سنة ٣٢٨ هجرية.

شعره:

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل. وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالتهم، ورقة الغربيين وسلاستهم. وهو أكثر ترديداً لأخبار المشاركة وأصح تقليداً لأشعارهم. وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره، ورددوا ذكره، وشهدوا له بالتقدم والإجادة. روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرّج في منصرفه على مصر، فلقي بها أبا الطيب المتنبّي في جامع عمرو بن العاص، فأفاض في الحديث ملياً، ثم قال المتنبّي: ألا تشدني لمليح الأندلس؟

٥٠ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ٩٤-٩٦ والمُطَرَّب: ص ١٥١-١٥٦ ومطمح الأنفس: ص ٥١-٥٣، وبُغية الملتبس: ص ١٣٧-١٤٠ وتاريخ علماء الأندلس، ص ٤٩-٥٠: وإرشاد الأريب: ٦٧/٢-٧٢، ووفيات الأعيان: ٣٩/١-٤١، والوافي بالوفيات: ١٠/٨-١٤، ومعجم المؤلفين: ١١٥/٢-١١٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٠٦/١-١٠٩.

يعني ابن عبد ربه . فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فصفق له وأستعاده ثم قال «يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا!!» وكفى شهادة المتنبى دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه . وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه . وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى . وقال في مقدمته : وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها . وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على أنقطاعه . حظاً من المنظوم والمنثور» .

وهو من السابقين إلى اختراع الموشحات، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية . من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره، ولكنها إلى الشعر التعليمي Didactique أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد . ولما تناهت به السن وأرعشه الكبر، ألق عن صبوته، وأخلص لله في توبته، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل واللهو، بقطعة من بحرهما ورويهما في الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً، فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد .

العقد الفريد :

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب، جامع لتشتيت الفوائد ومنثور المسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى . وقد آستوعب خلاصة ما دون من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم . ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشئ كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح . وقد تأنق في تبويبه وتفنن في ترتيبه، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه؛ وسَمَّى كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريضة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ .

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة، اللهم إلا إلى نفسه! حتى إن صاحب بن عباد لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه . فلما تصفحه قال : «هذه بضاعتنا ردت إلينا . ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا . لا حاجة لنا به، ثم رده» . والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات .

نموذج من شعره:

قال في الغزل:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
يا من تقطع خصره من رقة

وقال في موقف الوداع:

ودعّنتني بزورة وأعتناق
وبدت لي فأشرق الصباح منها
يا سقيم الجفون من غير سقم
إن يوم الفراق أفضح يوم

وقال في وصف رمح وسيف:

بكل رذِيٍّ كأن سنانه
تقاصرت الأجال في طول متنه
وذى شُطب تقضي المنايا لحكمه
يسلل أرواح الكمأة أنسلأله

وآخر شعر قاله قوله:

بليت وأبليتني الليالي بكرها
ومالي لا أبلى لسبعين حجة
ولست أبالي من تباريح علتي
وصرفان للأيام معتوران
وعشر أت من بعدها ستان
إذا كان عقلي باقياً ولساني

٥١ - ابن هانئ الأندلسي

٩٣٨ - ٩٧٤ م

٣٢٦ - ٣٦٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي بأشبيلية في زهرة العهد الأموي وفي

٥١ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ٨٩ - ٩٠، والمطرب: ١٩٢ - ١٩٥، وتكملة الصلة: ٣٦٨/١، ومطمح الأنفس: ص ٧٤، والخريدة، ٤: مصر ١، القاهرة ١٩٥١، ٢٤٨ - ٢٨١، وإرشاد =

أوج عصره الذهبي، وفي حكم الملك الناصر. وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المؤلف. يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة، وأبوه هانيء يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر. وأستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم، حتى اتصل بصاحب أشبيلية فنال حظوته وكسب محبته. وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين، ففطف ابن هانيء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين. وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على نقبض الشريكين يمتنون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدرون عن البحث في الدين، فتألب أهل أشبيلية عليه، وكادوا يصلون بالأذى إليه. وأتهموا الملك بمشايعته على رأيه، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ نائرة القوم وينسونه. فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة، فلقي القائد جوهرراً فاتح مصر للمعز فمدحه. وأخصب زرع أماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين الله العبيدي فأصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه. ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعة ابن هانيء وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر. فلما كان في طريقه إليها عرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها، فأقام عنده يقصف ويلهو، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت. فقيل إن نداماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعه الخمر في الطريق فمات، وعمره ست وثلاثون سنة. فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدّر لنا ذلك».

أخلاقه:

كان ابن هانيء ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر. وكان ذكي الفؤاد فكاه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس ومصداق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته، وترفضها طبقته، ومبالغته في شعره إلى حد الكفر، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس. ناهيك بميئته الداعرة التي قل أن ماتها رجل.

شعره:

ابن هانيء على رأي الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع. وفي هذا الرأي على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون. على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة

= الأريب: ١٢٦/٧ - ١٣٣، وابن خلكان: ٧/٥ - ٧، ونفح الطيب، ٤٤٤/٢ - ٤٥٠، ومعجم المؤلفين: ٨٨/١٢ - ٨٩، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٣١/١ - ١٣٤.

التفكير، وسلامة التعبير، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوارج النفس . وقد اطلع على شعر المتنبي وهو معاصر فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه وأتم بهديه: فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة، وينثر في ثناياه مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً لشعره، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجابة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشاركة. ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر، والعزيمة والدهر، والكرم والبحر، في هذه التشابيه المعروفة. فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد. وكأن هذه الموازنة أثارت سخط أبي العلاء، وعصيته للمتنبي شديدة كما تعرف، فقال في ابن هانئ: «ما أشبهه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القعقة التي في أفاظه» ومن يدري؟ فلو أن الله نسا في أجل ابن هانئ فلم تأخذه المنون عبطة لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأي آخر.

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيد أو ابتغاء لتقليد؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد. وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره:

إننا وفي آمال أنفسنا	طول وفي أعمارنا قصر
لنرى بأعيننا مصارعنا	لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاصرنا	أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا	فأكلهن العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن	ما عد منها السمع والبصر
أي الحياة ألد عيشتها	من بعد علمي أنني بشر
خرست لعمر الله ألسنا	لما تكلم فوقنا القدر

ومنها:

وإذا صحبت العيش أوله	صفواً، فهين بعده الكدر
وإذا انتهيت إلى مدى أمل	دركا، فيوم واحد عمر
ولخير عيش أنت لابسه	عيش جني ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد	ولكل نهلة وارد صدر
وحدود تعمير المعمر أن	يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة	وتنال منه الهام والقصر

والمرء كالظلّ المديد ضحى

ويقول في ختامها:

غرض ترامى في الخطوب، فذا
فجزعت حتى ليس بي جزع

وقال في الغزل:

أمسحوا عن ناظري كحلّ السهادِ
أو خذوا مني ما أعطيتُم
هل تجيرون محباً من هوّى؟
أسلّوا منكم من هجركم
إنما كانت خطوب قيّضت
فعلى الأيام من بعدكم
لا مزار منكم يدنو سوى
قلّ تنويل خيال منكم
لم يزدنا القرب إلا هجرة
وإذا شاء زمان رابنا

والفيء يحسره فينحسر

قوس، وذا سهم، وذا وتر
وحذرت، حتى ليس بي حذر

وأنفضوا عن مضجعي شوك القتادِ
لا أحب الجسم مسلوب الفؤادِ
أو تفكون أسيراً من صفاد؟
قلما يسلو عن الماء الصوادي!
فعدتنا عنكم إحدى العوادي
ما على الظلماء من لبس الحدادِ
بأن أرى أعلام هضب أو نجادِ
يَطْبِي بين جفون ومهادِ
فرضينا بالثنائي والعبادِ
برقيب أو حسود أو مُعادي

ومن قصيدة له يمدح جوهرًا ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر:

وقد راعني يوم من الحشر أروعُ
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
ولم أدر شيّعت كيف أُودِعُ
وإني بمن قاد الجيوش لمولِعُ
تخب المطايا فيه عشراً وتوضعُ

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمعُ
غداة كأن الأفق سُدَّ بمثله
فلم أدر إذا سلّمت كيف أشيّعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة
فلا عسكر من قبل عسكر جوهرٍ

وقال في المدح:

ف المشرفية والعديد الأكثر
تحت السوابغ تبّع في جَمِير
خُزرًا إلى لحظ السنان الأخرز
قبُّ الأياطل، داميات الأنسر
فيطآن في خد العزيز الأصعر
كالغيل من قصب الوشيج الأسمر
في كل شثن البلدتين غضنفر
وخلوقهم علق النجيع الأحمر

أبنى العوالي السمهرية والسيو
من منكم الملك المطاع كأنه
القائد الخيل العتاق شوازيًا
شعث النواصي حشرة آذانها
تنبو سنايكهن عن عُفر الثرى
جيش تقدمه الليوث وفوقه
ويقوده الليث الغضنفر مُعلماً
في فتية صدأ الدرع عيبرهم

مما عليه من القنا المتكسر
ومبيتهم فوق الجياد الضمر
فكأنهن سفائن في أبحر
وخيامهم من كل لبدة قسور
يردون ماء الأمن غير مُكدر

لا يأكل السرحان شلّو طيعنهم
قوم بيت على الحشايا غيرهم
وتظل تسبح في الدماء قباهم
فحياضهم من كل مهجة خالع
حيي من الأعراب إلا أنهم
وقوله في وصف الخيل:

هضب، ولا البيد الحزون حزون
علقت بها يوم الرهان عيون
مرت بجانحتيه وهي ظنون

وصواهل، لا الهضب يوم مُغارها
عُرفت بساعة سبقها، لا أنها
وأجل علم البرق عنها أنها

٥٢ - ابن زيدون

١٠٠٤ - ١٠٧٠ م

٣٩٤ - ٤٦٢ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤. وكان أبوه من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورزق في الإنشاء قريحة طيبة وطبعاً سليماً. وسمت به كفايته ومكانته إلى أن ورر لأبي الحزم بن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس، فاشتهر أمره وارتفع قدره. وألقى إليه مقاليد الأمور فديرها وساسها بحذق وكياسة. وكثيراً ما سفر بين مولاة وملوك الأندلس فأحسن السفارة وفض المشكل. ثم دبت بينهما عقارب السعاية، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، ولم يشفع له سالف خدمته ولا سابق حرمة. فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته، ويستدفع نقمته، فلم يلن لها ذلك القلب الجماد، ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفعه. وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إلى بعد أبيه فاستصحبه وقربه. ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١ فاستخلصه إليه، وعول في أموره عليه. ثم وزر لابنه المعتمد وقضى في أشبيلية بقية عمره.

٥٢ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ١٣٠ - ١٣١، وقلائد العقيان: ص ٧٩، والمغرب في حلي المغرب: ٦٣/١ - ٦٩، وكنوز الأجداد: ٢٥١ - ٢٦٠، وتمة المختصر: ٥٦٣/١ - ٥٦٤، وبغية الملتبس: ص ١٨٦ - ١٨٧، والخريدة: ٤٨/٢ - ٧١، والوافي بالوفيات: ٨٧/٧ - ٩٤، ونفح الطيب: ٦٢٧/١.

فأنت ترى من هذا المجمع أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة. فقد أُبتلي وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعرة، سافرة، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، وفي هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه، فسعوا في إفساد ذات بينهما، واشتهر منهم الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو عظيم الحول والطول، فتزلف إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون فظفر برضاها: ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية، وضمنها كثيراً من المَلح في الأدب والتاريخ.

شعره:

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس، لانبجاسه من أعماق فؤاده، وانبعائه من طبيعة بلاده. فلا يجز جريان ابن هانيء وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم. لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق، ولا سبيلاً من سبل الشهرة، وإنما كان يشعر لنفسه، ويعبر عن نزوات حسه. وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة. تقرأ في شعره أجود ما أخصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، وصفا الديباجة. وقد تظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض، وقلمه لشرحها مجيد. وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له. وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه.

وقد تزلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليهم في الكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب في بعض حرمه فقعد للعزاء عنها، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزونه، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جناته. وإنك لتجد أثر هذا الإطلاع بادياً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشابه والمَلح.

نثره:

لابن زيدون نثر أنيق الوشي، دقيق النسيج، قليل التكلف والسجع، كثير الإزدواج والإطناب، شديدة الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما في التنوع بحروف الجر، وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والمَلح، والتمثل بالشعر في غضون النثر. ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالأخرى إلى

ابن عبدوس عن لسان ولادة، وهي التي سبق ذكرها. وقد حرص الأدباء على حفظهما وعُنيَ العلماء بشرحهما.

نموذج من كلامه:

قال مخاطباً بني جهور:

بني جهور أحرقتكم بجفائكم
تعدوني كالغبير الورد إنما
فؤادي فما بال المدائح تعبق
تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق

وقال يتشوق إلى ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية:

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
بتم وبناً فما ابتلت جوانحنا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
حالت لبعدكم أيامنا فعدت
لُيسق عهدكم عهد السرور فما
من مبلغ الملبسنا بانتزاحهم
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا
وقد تكون وما يُخشى تفرقنا
لا تحسبوا نأيكم عنا بغيرنا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
يا ساري البرق غادِ القصر فاسق به
ويا نسيم الصبأ بلغ تحيتنا
يا روضة طالما أجت لواحظنا
ويا حياةً تملينا بزهرتها
لسنا نُسميك إجلالاً وتكرمة
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
سرّان في خاطر الظلماء يكتننا
يا جنة الخلد أبدي لنا بسلسلها
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً

وقال يودعه:

ودع الصبر محبٌ ودعك
دائع من سره ما استودعك

يقرع السنُّ على أن لم يكن
يا أخوا البدر سناءً وسننِيَّ
إن يطل بعدك ليلي فَلَكمُ
وقال أيضاً:

أما رجا قلبي فأنت جميعه
يدنو بوصولك حين شط مزاره
ياليتني أصبحتُ بعضَ رجاك
وهمُّ أكاد به أقبلُ فاكِ

نموذج من نشره:

قال من رسالته الجدية:

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن أبقاه الله ماضيَ حدِّ العزم، وأرى زَندَ الأمل، ثابت عهد النعمة سلبتني أعزك الله لباس عمائك، وعطلتني من حلي أيناك، وأظمأني إلى ورد إسعافك، ونفضت بي كيف حياطتك، وغضضت عني طُرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي لك. فلا غرو قد يغض الماء شاربه، ويقتل الدواء لمستشفى به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته. والحين قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الحساد
وإني لأتجلد، وأرى الشامتين أني لربب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا لا بد أدامها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله وسمهري عرضه على النار مُثَقَّفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن بك حازماً
فليقسُ أحياناً على من يرحم
ومنها: . . . وأعود فأقول: ما هذا الذنب لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؛ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك. ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟.

إن لا يكن ذنب فعذلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

وكلها على هذا الأسلوب الرائع، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم، والافتنان الرائع.

وقال في رسالته الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، والمورط بجهله، البيِّن سقطه، الفاحش غلطه العاثر في

ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت
تهافت الفراش على الشهاب فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب. وأنت راسلني
مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف
أشكالك، مرسلأ خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاباً نفسك أنك ستنزل عنها
إلي، وتخاف بعدها علي :

ولست بأول ذي همة دَعْتَهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ

ومنها:

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعلاوة، مفرط الحمق والغباوة. بغيض
الهيئة، سخييف الذهاب والجيفة، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامك نممة وحديثك
غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيئك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة،
وعلمك مخرقة.

مساوٍ لو قُسمنَ على الغواني لَمَّا أمهرن إلا بالطلاق
وكلها على هذا النحو من الإقذاع والفحش والتهكم.

٥٣ - ابن حمديس الصقلي

١٠٥٥ - ١١٣٣ م

٤٧٧ - ٥٣٧ هـ

نشأته وحياته :

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيئته منذ حداثته بمعالجة
القرىض؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يُعرف قدره. حتى
استولى الترمذيون على وطنه وهو في ميعة الشباب، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام
الغاصب قومه سوء العذاب، وكيف جر على بلده شر الخراب، فهاجر إلى اسبانيا عام
٤٧١، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل المعتد بن عباد، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبا به،
حتى قال ابن حمديس: «قنطت لخبيتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي فإني
لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركب، فقال لي: أجب السلطان!
فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفنك، وقال لي أفتح الطاق

٥٣ - انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣٠٢/١، والتكملة: ص ٦٣٧، ومطالع البدر: ٣٦/١، ودائرة
المعارف الإسلامية: ١٤٥/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٧٤/٣.

التي تليك، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من باييه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتها قال لي:

أجز: أنظرهما في الظلام قد نجما فقلت: كما رنا في الدُّجَّة الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها فقلت: فعلٌ امرىء في جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة فقلت: وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمي خدمته.

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسسته، ونفاه من ملكه، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته، وأقام الشاعر في المهديّة قاعدة أفريقية، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفي بها معوجَّ القناة مكفوف البصر.

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة، وقور النفس، رقيق الشعور، قوي الملاحظة ظاهر الجد، كثير الانقباض. شديد التشاؤم؛ ولكنه كان سمح الأخلاق، حلو المعاشرة، يحضر مجالس الطرب، ويخالط أصحاب اللهو، في عفة نفس وكرم وخلق وسلامة عرض، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع. وهو القائل:

أصف الراح ولا أشربها وهي بالشّد وعلى الشّرب تدور
كالذي يأمر بالكرّ ولا يصطلي نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إنما استنتجناها من شعره، ولا ندري أهي فيه من طبيعة ميلاده. أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده.

شعره:

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه: فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لا يسف إلى المجون، ولا يتورط في الغي. وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المشرق. ثم تأتلق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتفتح مشاعره لجمال الطبيعة، ولذات الحياة، وعجائب الكون، فيصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل وقصور الترف، ومجالس الطرب؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبارة بيّنة. ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة ١٨٧٣ وفي رومية سنة ١٨٩٧ م.

نموذج من شعره:

قال في وصف نهر:

ومُطَرَّد الأجزاء يصقل متنه
جريح بأطراس الحصا كلما جرى
صبأ أعلنت للعين ما في ضميره
عليها شكا أوجاعه بخريره

وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر، والماء يخرج من أطراف تلك وأفواه هذه:

وضراغم سكنت عرين رآسة
فكأنما غشى النضار جسومها
أسد كأن سكونها متحرك
وتذكرت فتكاتها فكأنما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكأنما سلّت سيوف جداول
وكأنما نسج النسيم لمائه
ويبدعة الثمرات تعبر نحوها
شجرية ذهبية نزعت إلى
قد سُرّجت أغصانها فكأنما
وكأنما تأبى لوقع طيرها
من كل واقعة نرى منقارها
خرس تُعدّ من الفصاح فإن شدت
وكأنما في كل غصن فضة
وتربك في الصهريج موقع قظرها
ضحكت محاسنه إليك كأنما
وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه:

يا ذنوبي ثقلت والله ظهري
كلما تبت ساعة عدت أخرى
ثقلت خطوتي وفودي تعرّى
دب، موت السكون في حركاتي
وأنا حيث سرت أكل رزقي
كلما مرّ منه وقت بربح
يارفياً بعبدته ومحيطاً
مل بقلبي إلى صلاح فسادي
بان عذري فكيف يقبل عذري
لضروب من سوء فعلي وهجري
غيب الليل فيه عن نور فجري
وخبأ في رماده حرّ جمري
غير أن الزمان رآكل عمري
من حياتي وجدت في الريح خسري
علمه باختلاف سري وجهري
منه واجبر برأفة منه كسري

وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكري

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان:

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرةً
تغذي بأخلاقي صغيراً ولم تكن
ويارُبُّ نبت تعتريه مرارة
علمت بتجريبي أموراً جهلتها
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة
ركبت النوى في رحل كل نجيبه
ولما رأيت الناس يُرهب شرهم
تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وقال في الغزل:

عذبت رقة قلبي
وسُمت جسمي سقماً
من لي بصبر جميل
فيا تشوق بعدى!
ووجنة غمستها
لقد جنحت لسلمي
فالبدلال الذي زا
فكي من الأسر قلباً
ونعويني بعثبي
ظلماً بقسوة قلبك
وما شفيت بطبك
على رياضة صعبك؟
إلى تنسّم قربك!
في الورد صنعة ربك
كما جنحت لحربك
دفي ملاحه عُجبك
عليه طابَعُ حبك
فقد شقيت بعثبك

٥٤ - ابن خفاجة الأندلسي

١٠٥٨ - ١١٣٨ م

٤٥٠ - ٥٣٣ هـ

نشأته وحياته:

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي وُلد بمدينة شَقَر أو جزيرة شَقَر كما يسميها العرب والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإسار فلم يَسْم إلى

٥٤ - انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١٤/١، وبغية الملتبس: ص ٢٠٢، وصفة جزيرة الأندلس: ص ١٠٣، ومذكرات العناني: ص ٦٤، وانظر الأعلام للزركلي: ٥٧/١.

معالي الأمور، ولم يتول عملاً من الأعمال العامة، ولم يتعرض لاستماعة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد على أمثاله. وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة. فهو يتنقل بين رباهها وخمائلها، ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائعة، ويصف كل واقعة، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها، أو صورة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيجتنبها. وتنفس به العمر على تلك الحال حتى أتاه اليقين في مسقط رأسه سنة ٥٣٣.

شعره:

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها. قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي؛ فانتهى الأساليب الصافية، والألوان الزاهية، ودبجها بزخرف البديع، ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أشعاره. أما طلاب الآراء النضيجة والمعاني العميقة، والأفكار الفلسفية، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل، ولهذا الشاعر نثر متكلف سخيف. يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد.

نموذج من شعره

قال يصف زهرة:

ومائسة تزهي وقد خلع الحيا عليها حلّى حمراً وأردية خضراً
يذوب لها ريق الغمام فضة ويجمد في أعطافها ذهباً نضراً

وقال يصف نهراً ينساب في أحد المروج قد تعرّج مجراه وتعددت مناظره:
لله نهر سال في بطحاء! أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه، مجرّ سماء
قد رقّ حتى ظنّ قرصاً مُفرعاً من فضة بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه منحدرأ متلوياً كالحية الرقطاء
والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وقال يصف بلاد الأندلس:

يا أهل أندلس، لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار!
ماجنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت أختار!

وقال أيضاً:

مجتلى عين ورياً نفس
وَدجا ليلتها من لعس
صحتُ: واشوقي الأندلس!

إن للجنة بالأندلس
فسنا صحبتها من شنب
فإذا ما هبت الريح صبا

وقال يصف طيفاً ألم به في ليلة طويلة:

طيف ألمّ لظبية الوعساء
وشربت من ريق ومن صهباء
شفقاً هناك لوجنة حمراء
خرف يدبّ على عصا الجوزاء
ويجرّ من طرب فضول رداء
قد غازلتها الشمس غبّ سماء
كرعت على ظمأً بجداول ماء
حَدَرَ النوى خفاقة الأفياء
فيه بقطر الدمع من أنواء
عن مقلة كحلت بها زرقاء
أغرى بها ببنفسج الظلماء

ورداء ليل بات فيه مُعانقي
فجمعت بين رُضابه وشرابه
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة
والليل مُسَمَط الدَّوَابِّ كِبِرة
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه
تندى بفيه أبقوانة أجرع
وتميس في أنوابه ريحانة
نَفَاحة الأنفاس إلا أنها
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها
والفجر ينظر من وراء عمامة
فرغبت عن نور الصباح لنوره

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته:

فعاد عين الجد ذاك اللعب
فهولها مضطرم مُضطرب
يهزّ عطفيه هناك الطرب
ألهب متقدّ أم ذهب
حيث الشرار أعين ترتقب
ماء عليه من نجوم حيب
وبين جمر خلفه ملتهب
وانكدرت ليلاً عليه شهب

لاعب تلك الريح ذاك الالهب
وبات في مسرى الصبا يتبعه
ساهرته أحسبه مُنتشياً
لوجاءه منتقد لما درى
تلثم منه الريح خدّاً خجلاً
في موقد رقرق الصبح به
منقسم بين رماد أزرق
كأنما خرت سماء فوقه

وقال يصف شاباً جميلاً يسبح:

سقم، وللعضب الحسام ذباب
أطرته طوراً نشوة وشباب
أبدأً عليه، وللحياء نقاب
قد شف عنه من القميص سراب

وصقيل إفرند الشباب، بطرفه
يمشي الهوينى نخوة ولربما
شتى المحاسن، للوضاء ربطة
وبمعطفيه للشيببة منهل

عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حيابة ويموج من ردف ألف عباب

٥٥ - لسان الدين ابن الخطيب

١٣١٣ - ١٣٧٤ م

٧١٣ - ٧٧٦ هـ

نشأته وحياته:

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب: ولد بقرنطة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة، وتخرج على علمائها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس. ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان قرناطة (٧٣٣ - ٧٥٥) فاستكتبه، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضخم أمره. وما زال في هذا المنصب وتلك الحظوة حتى توفي أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الخامس فأقر لسان الدين في الوزارة. ولكن عقارب الوشاية دببت بين الرجلين فتكر له السلطان، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه ملوكها. ثم توالى عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه، فاعتقلوه بفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فافتوا بالحاده لاشتغاله بالفلسفة. فتسور عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً.

منزلته في الكتابة:

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع، سائر في صناعته مع الطبع، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس. وبما ساق الرسالة الضافية كلها على روي واحد. والنثر في الأندلس مبنى الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله. وقل أن تجد فيه السائغ المقبول لتكلفتهم السجع، وعملهم التنميق، وتوخيهم الإطالة فهم شعراء بالطبع، وكتاب بالصنعة، على غير ما نرى في أهل الشرق.

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة. وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأندلس، كما انتهت إلى ابن خلدون معاصره في إفريقية. ولأبن الخطيب القدم

٥٥ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ١٨٤، والاستقصاء: ١٣٢/٢، والدرر الكامنة: ٤٦٩/٣، ودائرة المعارف الإسلامية: ١٥٠/١، وابن خلدون: ٣٤١/٧، وآداب اللغة العربية: ٢١٦/٣، والفهرس التمهيدي: ص ٤١٩، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٣٥/٦.

الراسخة في التاريخ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً، أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ
غرناطة، وهو معجم تاريخي لرجال غرناطة في ثلاثة مجلدات.

نموذج من كلامه:

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل:

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همي يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلماً في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطوف في ما نرسم
زُمرّاً بين فرادي وُثي مثلما يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعلماً يزهني منه بأبهى ملبس

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطرُّ ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا، أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

أي شيء لامرئ قد خلصا فيكون الروض قد كُننَ فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً يرما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الأس لبيباً فهماً يسرق السمع بأذني فرس

يا أهيلَ الحي من وادي الغضا وبقلبي سَكَنُ أنتم به
ضاق من وجدي بكم رجب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تُعْنِقُوا عانيكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرمأ يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرمأ أفترضون عفاء الحُبس

بأحاديث المنى، وهو بعيد
شقوة المغرى به وهو سعيد
في هواه بين وعد ووعد
جال في النفس مجال النفس
ففؤادي نهبة المفترس
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
ليس في الحب لمحبوب ذنوب
لم يراقب في ضعاف الأنفس
ومجازي البر منها والمسي
عاده عيد من الشوق جديد
قوله: إن عذابي لشديد
فهو للأشجان في جهد جهيد
فهو نار في هشيم اليبس
كبقاء الصبح بعد الغلس

وبقلبي منكم مقترب
قمر أطلع منه المغرب
قد تساوى محسن أو مذنب
ساحر المقلة معسول اللمى
سد السهم وسمى ورمى
إن يكن جار وخاب الأمل
فهو لنفس حبيب أول
حكم اللفظ نها فاحتكما
منصف المظلوم ممن ظلما
مالقلبي كلما هبت صبا
كان في اللوح له مكتتباً
جلب الهم له والوصبا
لاعج في أضلعي قد أضرمنا
لم يدع في مهجتي إلا ذمنا

ومن قصار رسائله في الشوق إلى ابن خلدون وهي تمثل طريقته في الكتابة:

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج. وأما الصبر فسل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج. وأني بالصبر، على إبر الدبر، بل الضرب الهبر، ومطاوله اليوم الشهر، حتى حكم القهر. وهل للعين أن تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول، أعيت مراوضة الفراق على الراق، وكادت لوعة الاشتياق، أن تقضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سني ندماً تارة واستميح الدمع أحياناً

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر

على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكل على الله لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها، وغلب الثوار على كثير من أملاكها. وكان العلويون الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقسم، فاقتطعوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز.

قام خليفتهم الأول عبيد الله بن محمد بالقيروان سنة ٣٤٦ هـ ثم أرسل خليفتهم الرابع المعز لدين الله قائده وكتابه جوهر الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ هـ أساس القصر الكبير لمولاه، وأساس الجامع الأزهر لله. وأنزل طوائف الجيش حولهما في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٤٦٨ هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين.

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد، وللعلم الأخضر في قرطبة؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار، ومساعداً على الازدهار، ومعيناً على النمو. وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق، يأتون بهديهم، ويسترشدون بوحيمهم، في السياسة والحضارة والآداب والعلوم والفن، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيه عليهم، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع، ولكن المطاولة بين هذه الخلافات الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء، وتعضيد العلماء، وتشيد المدارس، وإنشاء المكاتب. فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسية، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أروبة، والعزیز بالله وابنه الحاكم في إفريقية. فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقراءها حتى بلغ ما في «خزانة الكتب» التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب بن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاض الأدب والعلوم في مصر، فقد كان يندو في داره رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة، فيرفدهم ويرشدهم. وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسه ويقيسه ما يؤلف في القراءات والفقه. وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها «دار الحكمة»، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وأباح دخولها الناس، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها، ويعنى بها كما كان يصنع المأمون. وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها في الدواوين وجعلوا لها ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكاتبين بها، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها. كابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ وابن بري المتوفى سنة ٥٨٢ هـ. وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز بالله، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فناء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة، ويؤيدوا دعوى الخلافة؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء، ومن المدارس

إلى الجدل والمرء حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى .

وبلغت القاهرة المعزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها، وغاية عمارتها، فغصت برجال الأدب والفسون، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر، وإقامة الدور، وتفخيم القصور، وعقد القباب العجيبة، وصنع المقرنصات البديعة، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصانع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان، وتوشيته بالزجاج الملون، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل، ورصفه بالفسيفاء المفوفة «مما طاولت به القاهرة بغداد وقربطبة، وكان نموذجاً صادقاً لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن . وقلما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب . ولم يقم في مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد» . وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق، وللشعراء في ميدانه استئان واستباق، فنبغ في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جرو على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية . وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شىء من التوفيق والإجادة، وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة في الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة . ووزر لصلاح الدين بن أيوب بعد ذلك . فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهده . وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص ١٦٣ ص ٢٢٩ فارجع إليه .

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي المتوفى سنة ٢٧٥ : وقد اشتهر بشعره الغزلي، وحواره العمري، وأسلوبه القوي، ونسجه الدقيق . روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحه في الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع .

وابن وكيع الملقب بالعاطس، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها سنة ٣٩٤ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه .

وأبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، رحل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر اليدين، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيذاب سنه سنة ٥٦٧ .

وهبة الله بن سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين. اتصلت أسبابه بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة. وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطه قلاذتهم ومحل رياستهم. وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شفاء الشرق. وله الموشحة المشهورة التي مطلعها:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارك منمطف الجدول

ثم جمال الدين بن مطروح وُلد بأسبوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لثائب دمشق، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورسماً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ.

ثم الشاعر الغزلي الرقيق كمال الدين بن النبيه، وإليك ترجمته.

٥٦ - كمال الدين بن النبيه

١٢٢٢ - ٠٠٠ م

٦١٩ - ٠٠٠ هـ

نشأته وحياته :

نشأ هذا الشاعر القدير مجهولة، وحياته مرت عادية هادئة، كالجدول السلسال في الروض الأفصح، لا تسمع غير أنغامه وخريره. فلم يلق بنفسه في غمار السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه، واكتفى بمدح بني أيوب في مصر حتى اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخطاط، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها سنة ٦١٩ هـ.

شعره :

ابن النبيه شاعر غمراً البديهة مليح النادرة، منسجم الأسلوب، وحسن الوشي مطبوع على البديع؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية ويشد في طلبها، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته. وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلف بالبديع

٥٦ - انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٧١/٢، والأعلام للزركلي: ٣٣١/٤، والنجوم الزاهرة: ٢٤٣/٦، والعبير: ٨٤/٥، وحسن المحاضرة: ٥٦٦/١.

هذا الكلف، ويسرف فيه هذا السرف، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به . ذلك لأن أسلوبه قوي الحياة، شديد الحركة، كثير التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، كقوله في المدح مثلاً:

فحريق جمرة سيفه للمعتدي ورحفق خمرة سيبه للمعتفي
يا بدر! تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف؟
يا غيم! تطمع أن تكون ككفه كلا وأنت من الأجهام المخلف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها في عصره . وهي المدح، وكله في بني أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسي ؛ والغزل والوصف، ولا يجيء بهما مستقلين، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه . فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح والنصر والبأس والجود . وأما غزله فمن النوع الحسي الحسي الشهواني الذي لا يتعدى جمال الشكل، من ليل الشعر، وصبح الوجه، وسحر الجفون، وسهام العيون ولؤلؤ الثغر، وياقوت الشفة الخ . أما الإحساس القلبي بالحب والإدراك النفسي للجمال فشيء لا تظفر به فيه . والراجح في الظن أنه كان يقوله على أنه باب من أبواب الشعر، لا على أنه فيض من الشعور، ونور من الإلهام . أما وصفه فأكثره في الخمر ومجالسها، وأقله في الطبيعة ومناظرها .

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح، كثير الافتتان؛ مغرق في المجاز والتشبيه والبديع . مجيد للمطالع، محسن للتخلص . وله ديوان طبع في بيروت وفي مصر .

نموذج من شعره:

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي :

باكرُ صبوحك، أهني العيش باكرهُ فقد ترنم فوق الأبك طائره
والليل تجري الدراري في مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب، على يده مُخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلي ذوب ياقوت لها حَبُّ فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكوّن من صبح ومن غسق فابيض خداه وأسودت غدائره
مهفهف القديندي جسمه ترفاً مخصر الخصر عبل الردف وافرهِ
سوّدْ سِوالفهُ . لُغس مراشفه، نعسْ نواظره، خرّس أساوره
تعلمت بانة الوادي شمائله وزوّت سحر عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتتما وأنت ناه لهذا الدهر أمره

فالعسر كالكأس تستحلي أوائله لكنه ربما مُجّت أواخره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف:

أفديه إن حفظ الهوى أوضيحا
من لم يذق ظلم الحبيب كظنه
يا أيها الوجه الجميل تدارك الص
هل في فؤادك رحمة لمتيم

ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
حلواً فقد جهل المحبة وادعى
بر الجميل فقد عفى وتضععا
ضمت جوانحه فؤاد موجعاً؟

ومن غزله أيضاً في بعض قصائده:

أجفانه شَرَك القلوب كأنما
يا قوّة متبسم عن لؤلؤ
ساق صحيفة خده ما سُودت
جمد الذي يمينه في خده
طاب الربيع كأنما عجن الصبا
وتفضضت أزهاره وتذهبت

هاروت أودعها فنون فنونه
خجلت عقود الدر من مكنونه
عبثاً بلام عذراه وبنونه
وحرى الذي في خده بيمينه
كافور مُزنته بعنبر طيبه
فكأنها طاووس في تلوينه

ومن غزله أيضاً:

أماناً أيها القمر المطل!
يزيد جمال وجهك كل يوم
وما عرف السقام طريق جسمي
يميل بطرفه التركي عني
إذا نشرت ذوائبه عليه
أيام ملك القلوب فتكت فيها
قليل الوصل ينفعها فإن لم
أدر كأس المدام على الندامي
بمنظرك البديع تدل تيهاً

فمن جفنيك أسياف تُسَلُّ
ولي جسدٌ يذوب ويضمحل
ولكن دَلُّ من أهوى يَدُلُّ
صدقتم. إن ضيق العين بخل
ترى ماء يرف عليه ظل
وفتكك في الرعية لا يحل
يُصِيبُها وأبل منه فطل
فمن خديك لي راح ونقل
ولي ملك بدولته أدل

وله قصيدة الرثاء المشهورة التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها:

الناس للموت كخيل الطراد
والله لا يدعو إلى داره
والموت نقاد، على كفه
لا تصلح الأرواح إلا إذا

فالسابل السابق منها الجواد
إلا من استصلح من ذي العباد
جواهر يختار منها الجياد
سرى إلى الأجسام هذا الفساد

٥٧ - ابن الفارض

١١٨١ - ١٢٣٥ م

٥٧٦ - ٦٣٢ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو حفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض . أصل آبائه من حماة ووُلد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦ ، وتفقه في الدين ، وتوسع في اللغة والأدب ، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً . ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية ، فافتنى آثارهم وعرف أسرارهم . وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زماناً ثم رجع إلى مصر ف قضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ .

صفاته :

كان ابن الفارض عَلى تقشفه وتصوفه جميل الهيئة ، حسن البزة ، ظريف المحضر ، محمود العشيبة ، وقوراً ، كثير الورع ، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء . وإذا حضر مجلساً عقدت هيئته ألسنة أهله فلا يتكلمون . فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل ، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك ، فإذا أفاق أملى شعره ! .

شعره :

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصرٌ تنازعَ النفوس فيه عاملان مختلفان : عامل التصوف والتقوى ، لدوام الحروب وتوالي الكروب من المجاعات والموتان ؛ وعامل الفسوق والمجون ، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات ، وانتشار المخدرات . واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين . فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان . وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية ، وربي تربية صوفية ، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره ، ينظم إشاراتهم ، ويصف مقاماتهم ، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل ، مريداً بذلك الذات الإلهية عن اصطلاحهم . فكان بذلك مُوجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي Symbolisme وهو أكثر الشعراء عملاً للكلام وتكلفاً للبديع ولوعاً بالجناس والطباق ، وأسبَرُ

٥٧ - انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ٤٥٤/٣ - ٤٥٦ ، وميزان الاعتدال : ٢٦٦/٢ ، والبداية والنهاية : ١٤٣/١٣ ، والنجوم الزاهرة : ٢٨٨/٦ - ٢٩٠ ، وشدرات الذهب : ١٤٩/٥ - ١٥٣ وانظر الأعلام للزركلي : ٥٥/٥ - ٥٦ .

معاصريه شعراً، لرقته واشتماله على ما يرضي المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن: ذاك بباطنه وهذا بظاهره. فالمتصوفون يشدون في مجالس الذكر، والخلعاء يغنونه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في اغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوله على طريقة الصوفية كالنابلسي (١١٤٣).

ومن أشهر شعره تائيته الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت والأخرى نحو ١٠٣ بيت. وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حل هذه الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصَّبِّا قلبي صبا لأحبتني فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرني العهد القديم لأنها حديثه عهد من أهيل مودتي

أما سائر شعره فجليٌّ واضح يغلب فيه الحنين إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره:

قال في الغزل:

لم أخلُ من حسد عليك فلا تضع وأسأل نجوم الليل هل زاري الكرى
سهرى بتشجيع الخيال المرجف جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

وقال:

عِدْ ذكر من أهوى ولو بملام كأن عدولي بالوصول مبشري
فإن أحاديث الحبيب مدامي وإن كنت لم أطمع برد سلامي
قتيلُ جفون بالدوام دوامي ففيها كما شاء التحول مقامي
ضحیحٌ عليلٌ فاطلبوني من المنى طريحُ جوِّي صبُّ جريح جوارح

وقال في الخمر وفيها كثير من رموز الصوفية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة لها البدر كأس وهي شمس، يديرها
سكرنا بها من قبل أن يُخلَق الكرمُ ولولا شذاها ما اهتديت لحايزها
هلال، وكم يبدو إذا طلعت نجم يقولون لي: صفها فأنت بوصفها
ولولا سناها ما تصورها الوهم صفاء ولا ماء، ولطفٌ ولا هواء،
خبير، أجل عندي بأوصافها علم تقدّم كل الكائنات حديثها
ونور ولانار، وروح ولا جسم وقالوا شربت الإثم، كلا وإنما
قديمًا ولا شكل هناك ولا رسم شربت التي في تركها عندي الإثم

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صحيحاً ومن لم يمت سُكراً فاته الحزم
على نفسه فليَبْكِ من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

٥٨ - بهاء الدين زهير

١١٨٦ - ١٢٥٨ م

٥٨١ - ٦٥٦ هـ

نشأته وحياته :

أبو الفضل زهير بن محمد المهلي وُلد بوادي نخلة على مقربة من مكة ونقل إلى مصر فنشأ بها وتأدب. فلما بلغ أشدّه واستوى في العلم والجسم، وبرع في النظم والنثر والخط، اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيوبي ورافقه إلى الشام والجزيرة. فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أثر موقعة بينما خذله قواده، وتألّبت عليه أجناده، وانضوا تحت لواء ابن عمه لم ينقض البهاء عهد ملكه، ودعاء الوفاء ألا يخدم غيره. فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه، ونهض الجد بمولاه، فاسترد الصالح مُلك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته. وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذ وزيره وموضع سره، يصدر عن رأيه ويمشي على مشورته. وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته. وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

شعره :

كان بهاء الدين دميث الأخلاق، رقيق الطباع، لين الجانب، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره، فجاء عذباً يطمع السامع أن يأتي بمثله لسهولته ورقته، فإذا حاول عجز. فشعره فيض قريحته، ووحى طبيعته، وصورة بيئته. لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبيهم. فلا تجد كلمة غريبة، ولا جملة معقدة، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفعه، وتلمح عليه جمال جوّه وتألقه. وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصر فيما عداهما. وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظاً سهلة، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى

٥٨ - انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ٢٠١، ووفيات الأعيان: ٣٣٢/٢ - ٣٣٨، والعبر: ٢٣٠/٥، البداية والنهاية: ٢١١/١٣ - ٢١٢، والنجوم الزاهرة: ٦٢/٧ - ٦٣، وشذرات الذهب: ٢٧٦/٥ - ٢٧٧، وانظر معجم المؤلفين: ١٨٧/٤، والأعلام للزركلي: ٥٢/٣.

أحرار المعاني . وشعره مجموع مطبوع متداول . وقد ترجمه المستشرق الإنجليزي بلمر إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبردج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه .

نموذج من شعره :

قال يخاطب المُتَزَمَّت من صروف الدهر:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به
حاسب زمانك في حالي تصرفه
والله قد جعل الأيام دائرة
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت
ما كنت أول مفدوح بحادثة
سرب مال نما من بعد مرزأة

وله في الغزل:

خليليّ أما هذه فديارهم
خليليّ هذا موقف يبعث البكا
فإن كتتما لا تسعداني على الأسي
فيا ويح قلبي بالغرام أطعته!
وإني وإياه كما قال قائل:

ومن قوله في الغزل أيضاً:

إن شكا القلب هجركم
لو رأيتم محلکم
قصّروا حدة الجفا

ومن قوله في المزاح:

لك يا صديقي بغلة
تمشي فتحسبها العيو
وتخال مدبرة إذا
مقدار خطوتها الطويل
تهتز وهي مكانها
أشبهتها بل أشبهت
تحكي صفاتك في الثقا

مهّد الحب عذركم
من فؤادي لسرّكم
طوّل الله عمرکم

ليست تساوي خردلة
ن على الطريق مشكّله
ما أقبلت مستعجلة
ة حين تسرع أنملة
فكأنما هي زلزلة
ك كأن بينكما صله
لة والمهانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وُضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثبت فيه العقول من غفلتها، وهبّت الفطن من غفوتها. فلقد عنى خلفاؤه وعلماءه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشريعة، وأستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنبد يسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السند هند في الفلك، وكتاب أقليدس في الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قواها الرشيد بروح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر وكان يحل العلماء على تباين نحلهم، فكان أطباؤه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه وقد ترجم في زمنه منه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيل والجبر والنبات والحيوان.

وما أفضت الخلافة إلى المأمون - وهو في العرب كبريكلس في اليونان؟ وأغسطس في الرومان - استعر أوار هذه النهضة العلمية؟ فأتى ما بدأ به آباؤه وأتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء من كل حدب ونحلة. وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع؛ فكانت الإبل ترى من آن إلى آن داخله بغداد موقرة ظهورها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية. وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه. وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خبر الترجمة فترجم على

خير ما يمكن فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل أصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمي العروض والقافية وحذا الملوك في الشرق والعرب حذو العباسيين فشادوا المدارس، وأقاموا المراصد، وشجعوا العلماء، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب وأخترعوا ما لا يجمله العالم ولا ينكره التاريخ.

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه، وأنقطعت أسباب الطلب، ودرست المصنفات، وكسدت بضاعة العلم، «ظن الناس أن تحصيله سعي باطل، فأقتصروا على شرح الكتب وأختصارها ولم يعنوا إلا ألفاظها.

فلما رأت العلوم أن الشرق قد تجهم لها، وأن الزمان قد أضعف أهلها، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوروباعن طريق المغرب والشام، ففتحت لها الغرب صدره، وفعل سلوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية. وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن!

العلوم الأدبية

علم الأدب:

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سمو المكانة وفرط العناية لحدائنه عهد القوم بالبداوة، وتمدح رجالانهم باللسن، وحاجتهم إلى فصيح اللغة وطرف الشعر في استجلاء غامض الكتاب، واستيضاح غريب السنة، والاستشهاد على ضوابط النحو، وأكتساب ملكة اللسان. وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يحفظ في الصدور وتضرب إلى مظانه أكباد الإبل. فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العرب داء العجمة وأستشرى فساد اللحن، وأختص بالرحلة إليه والتلمس له طائفة من العلماء شهروا بالرواية، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥)، وخلف الأحمر (١٨٠)، وأبي عبيدة (٢٠٩)، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥)، والأصمعي (٢١٦). كانوا يرودون البادية ويداخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستلمح، أو شعر مستطرف، أو كلمة غريبة.

وظل الشأن في رواية الأدب للسمع والحفظ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم. فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون. بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي؛ ولكن الحافظ هو أول من ضم شتيت الأدب وأستوعب أطرافه بكتابه البيان

والتبيين والحيوان. ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وأبي علي القالي صاحب الأمالي، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعهم، وكتبهم هي موارده ومشارعه.

الأدباء

٥٩ - الأصمعي

٧٤٠ - ٨٣١ م

١٢٣ - ٢١٦ هـ

حياته وعلمه :

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمعي) سنة ١٢٣ هـ في بيت عربي عريق في الكتابة، ونشأ بالبصرة، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفتنون بالبصرة، وأكثر الخروج إلى البادية، وشافه الأعراب وساكنهم، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى اجتمع له من الأخبار النوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية. وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال «إن أبا عبيدة لو أمكنه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين. وأما الأصمعي فلبل يطربهم بنغماته. وحدث الأصمعي عن نفسه قال: «حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها فقال خمسون مجلداً؛ فقال قم إلى هذا الفرس وأمسك كل عضو منه وسمه، فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لي قم يا أصمعي وأفعل أنت ذلك. فقمتم وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً، وأنشدت ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه؛ فقال خذ فأخذته وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه» وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعي وشدة حافظته. فلا بدع إذ قال إنه يحفظ اثني عشر ألف أرجوزة. وكان الأصمعي مع أشتهاره بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة مشهوراً بنقد الشعر

٥٩ - انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٤٢٨/٥، والمعارف لابن قتيبة: ص ٥٤٣ - ٥٤٤، والجرح والتعديل: ٣٦٣/٥، ومراتب النحويين: ٤٦ - ٦٥، وطبقات النحويين للزبيدي: ص ١٦٧ - ١٧٤، وتاريخ بغداد: ٤١٠/١٠ - ٤٢٠، والأنساب للسمعاني: ٢٩٣/١، وإنباه الرواة: ١٩٧/٢ - ٢٠٥، وتهذيب الأسماء واللغات: ٢٧٣/٢، وانظر الأعلام للزركلي: ١٦٢/٤.

أيضاً، أخذ ذلك عن خلف الأحمر. وله في الشعر والشعراء آراء عالية. وهو على ظرّفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة. فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول: العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة. وما زال نديماً للخليفة الرشيد حتى توفي. فلما ولي المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه، فأحتج بكبر سنه وضعفه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورُئي بعد ذلك راكباً حماراً دميماً، فقيل له: «أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إليّ من ذلك مع فقده». وهكذا رضي من العيش بالكفاف حتى توفي سنة ٢١٦، وله من العمر تسعون سنة.

مؤلفاته:

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة، ككتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب النوادر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع.

٦٠ - أبو الفرج الأصبهاني

٨٩٧ - ٩٦٧ م

٢٨٤ - ٣٥٦ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد وأختلف إلى العلماء والرواة، فسمع الحديث والأخبار، وروى الأنساب والأشعار، وتوسع في النجوم والسير والبيطرة والطب فنبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة، فأستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه، ويمتعهم بكتبه، ويستفيد من مالهم، ويتقوى بنفوذهم. وما تان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين، بالأندلس سراً فينعمون عليه. وكان يجاهر بالتشيع وهو أموي تقيّة للشيعه ومدارة؛ لأنه في بلادهم نشأ وفضلهم ظهر.

٦٠ - انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١٠٩/٣ - ١١٣، وذكر أخبار أصبهان: ٢٢/٢، والفهرست: هي ١٦٦ - ١٦٧، والمنتظم: ٤٠/٧ - ٤١، ومعجم الأدباء: ٩٤/١٣ - ١٣٦، الكامل في التاريخ: ٥٨١/٨، ومراة الجنان: ٣٥٩/٢ - ٣٦٠، وتاريخ بغداد: ٣٩٨/١١ - ٤٠٠، وهديّة العارفين: ٦٨١/١، ومفتاح السعادة: ١٨٤/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٧٨/٤.

وكان أكثر الناس حذباً عليه وإيثاراً له، الوزير المهلبي وزير معز الدولة ابن بويه. فأنقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة ٣٥٦ هـ وقد حولط قبل موته.

أخلاقه وعلمه :

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه، سليط اللسان، مخشيّ البادرة، تتقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات. وكان قدر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله. والوزير المهلبي على تنطيه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه. فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنثور والمنظوم، ثقة فيما يحدث، ناقداً لما يسمع. ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفاً مجيداً، ورواية أميناً. وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغاني.

كتاب الأغاني :

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابيه مثله، وأن كل كتاب في الأدب كلٌ عليه، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية؛ ألفه في خمسين سنة، وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشيديت وزيدت للوائق، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائلها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة؛ وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وأعتذر إليه. وكان الصاحب بن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً. فلما أقتناه أستغنى به عنها. وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة ١٢٨٥ هـ، ثم عثر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً بالفرنسية طبعه في ليدن سنة ١٩٠٠ م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ هـ. وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة مُنقَّحة بمعونة سري من سراة المصريين ولم يتم وقد أختصره أبو الفرج في مجلد واحد فقد مع سائر كتبه.

نموذج من شعره :

قال يمدح الوزير المهلبي :

ولما انتجعنا لائذين بظله
أعان وما عني ومنّ وما منّا
ورُدنا عليه مُفْتَرِينْ فَرَأشنا
ورُدنا حماه مُجْدِينْ فَأُخْصنا

وقال يخاطبه من قصيدة :

فداؤك نفسي، هذا الشتاء
ولم يبق من نشبي درهم
علينا بسلطانك قد هجم
وتخرقها خافيات الوهم

فأنت العماد ونحن العفاة وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس في المساجد ويدون في الكتب، وقد أحكمت روابطه، وحُققت ضوابطه، وأشبع الكلام فيه علماء المصريين: البصرة والكوفة. وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه. فمنهم أبو الأسود الدؤلي واضعه، وابن إسحق الحضرمي مُعلِّله، وهرون بن موسى ضابطه، وعيسى ابن عمر أول من ألف فيه، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه. ولم يشغل به الكوفيون إلا بعد ذبوعه بالبصرة وما جاورها: أخذوه عن البصريين وجاروهم في تلقيه وتدوينه، وناقسوه في تحصيله وتفصيله. وأشد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده. ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع: فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم، ويتشددون في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخالص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة، وقربها من عامر البادية. أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس، ولا يتخرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم. فأهل البصرة أوسع دراية، وأوثق رواية؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لبني هاشم. فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة. ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر. وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران، فجلا علماؤهم إلى بغداد، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس. وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين، وضعت أنصار الفتيين، فأقطع النزاع، وأنحسم الجدل، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه وأقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف.

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده، وتشعبت أطرافه، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول وأقتصروا على المبادئ كما فعل ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل. علي أن هذا العلم مُني بطائفة من فلاسفة النحاة وسعوا الجدل فيه، فقلَّبوا وجوه الألفاظ، وأحيوا موت اللغات، وخلطوا الشاذ بالصحيح، وجاؤا بالتعديلات الباردة والتقديرية الفاسدة والأقوال المتضاربة، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطيء عن قول يبرر به وهمه، وحجة يؤيد بها زعمه.

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النحاة عدا من تُرجم به منهم في غير هذا الباب، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجنه لأنفسنا في هذا الكتاب.

النَّحَاةُ

٦١ - سِيَّوِيَّةُ

٧٦٥ - ٧٩٦ م

١٤٨ - ١٨٠ هـ

نشأته وحياته:

وُلد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسبيويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملي على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي ﷺ: «ليس من أصحابي أحدٌ إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء»، فقال سبيويه: «ليس أبو الدرداء» فصاح به حماد: لحتت يا سبيويه؛ إنما هذا استثناء» فقال: «لا جرم لأطلبن علماً لا يلحطني معه أحد» فطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر، حتى حدّق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصريين ناسباً إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريداً في فنه، سديداً في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مرآغ لمستفيد، وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصروا في تسميته على «الكتاب» فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكان المبرر إذا أراد مرید أن يقرأه عليه يقول له: «هل ركب البحر؟» تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سبيويه فليستح» ولولا هذا الكتاب لخمّل ذكر صاحبه.

ولما آنس سبيويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة، والكسائي يومئذ بها يعلم الأمين ابن الرشيد فجمع بين الرجلين يحيى بن خالد. فتناظرا في مجلس أعدّ لذلك. فكان من أسئلة الكسائي لسبيويه قوله: ما تقول في قول العرب «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها» فقال سبيويه «فإذا هو هي، ولا يجوز النصب»

٦١ - انظر ترجمته في: طبقات النحويين: ص ٦٦ - ٧٤، والفهرست: ٥١/١ - ٥٢، وبغية الوعاة: ٢٢٩/٢ وأخبار النحويين البصريين: ص ١٥ - ١٦، ووفيات الأعيان: ٤٨٧/١ - ٤٨٨، ومراة الجنان: ٤٤٥/١، والبداية والنهاية: ١٧٦/١ - ١٧٧، ومفتاح السعادة: ١٢٨/١ - ١٣٠، ونفح الطيب: ٣٨٧/٢، والأعلام للزركلي: ٨١/٥.

ووجد في الأصل لهذا الكتاب: أن سبيويه قد توفي سنة ١٧٧ هـ وهو خطأ، وصوبناها من كتاب: سير أعلام النبلاء: ٣٥١/٨، وكذلك من كتاب: الأعلام للزركلي: ٨١/٥: أنه توفي سنة ١٨٠ هـ وقيل سنة ١٨٨ هـ والأول أصح ١٠ هـ.

فقال الكسائي «بل العرب ترفع ذلك وتنصبه» فلما أشد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص اللهجة، فصوّب كلام سيويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه كوفي وضيع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء - فأراد الأعرابيُّ على أن يقول بمقالة الكسائي . فلما أحس سيويه تحامل الأمراء عليه وقصدتهم بالسوء إليه غادر بغداد وأرتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالغا من العمر أربعين سنة ونيفاً .

٦٢ - الكسائي

٧٣٥ - ٨٠٥ م

١١٩ - ١٨٩ هـ

نشأته وحياته :

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي . نشأ بالكوفة وأخذ لقراءة عن حمزة الزيات، وتميز بقراءة خاصة فعده من القراء السبعة ولم يكن له يد في لشعر، حتى قيل «ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر» وبلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئاً؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوهاً من مَشْيِ طويل : «لقد عبيت!» فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن!» فقال كيف لحت؟ فقالوا له : «إن كنت أردت من التعب فقل أعبيت . وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عبيت» فأنف من ذلك التجيه ولازم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصّل ما عندهما . وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله : أنى لك هذا العلم؟ فقال الخليل : من بوادي الحجاز نجد تهامة . فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى آستكمل حظه من الرواية، وأستوفى قسطه من اللغة . ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه . ثم أقامه الرشيد مؤدباً لولده الأمين . وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته وبأمرهما ألا ينزعجا قيامه ومجيئه . ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد برَبْنويه على مقربة من الري فبكاهما وقال : «دفنت الفقه والعربية بالري» .

مؤلفاته :

انتهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من

٦٢ - انظر ترجمته في : التاريخ الصغير: ٢/٢٤٧، ومراتب النحويين: ص ٧٤، ٧٥، وطبقات النحويين: ١٣٨، ١٤٢، والفهرست: ص ٢٩، وتاريخ أبي الفداء: ١٧/٢، ودول الإسلام: ١/١٢٠، وطبقات المفسرين: ١/٣٩٩، ومعرفة القراء: ١/١٠٠-١٠٧، وتاريخ بغداد: ١١/٤٠٣، وسير أعلام النبلاء: ٩/١٣١، والأعلام للزركلي: ٤/٢٨٣ .

عشرين كتاباً. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو. وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء،
ورسالة في لحن العامة.

٦٣ - الفراء

٧٦١ - ٨٢٢ م

١٤٤ - ٢٠٧ هـ

نشأته وحياته :

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة. ولزم الكسائي حتى استمد منه وتخرج عليه. وشافه الأعراب وأخذ عنهم. ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فأمتاز بذلك من أستاذه الكسائي. وكان ميالاً إلى مذهب المعتزلة. ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه، فأكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب، وقوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره. قال أبو العباس ثعلب: (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية. لأنه حصلها وضبطها ولولاها لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري: (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس).

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها وخلفه على درسه بعد موته. فلما ولي المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديه الأدب، وأقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية. وأمر أن تُفرد له حجرة من الدار ووكل به جوارى وخدام، وسير الوراقين يكتبون ما يملي حتى صنف كتاب الحدود في ستين. ثم خرج للناس فأملى كتاب المعاني فخزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخة كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه. فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملي كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهيم بالخروج، ثم أصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً. وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له: «من أعز الناس؟» فقال «ما أعرف أعز من أمير المؤمنين» قال: «بلى، من إذا نهض تقاتل

٦٣ - انظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين: ص ٥١، ونزهة الألباء: ص ٩٨، والمختصر في أخبار البشر: ف/٣٠، وتذكرة الحفاظ: ٣٧٢/١، وبغية الوعاة: ٣٣٣/٢، ومفتاح السعادة: ١٧٨/١ - ١٨٠، ووفيات الأعيان: ١٧٦/٦ - ١٨٢، ومرآة الجنان: ٣٨/٢ - ٤١، والأعلام للزركلي: ١٤٥/٨ - ١٤٦.

عَلَى تقديم نعليه ولياً عهد المسلمين» فقال: «يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكنني خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها»، فقال له المأمون: «لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً. وما وُضِعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رَفَع من قدرهما وبيّن من جوهرهما، وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسלטانه ووالديه ومعلمه».

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يملئها على تلاميذه دون كتاب لقوة حافظته. وكان أكثر مقامه في بغداد، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة ٢٠٧ هجرية.

٦٤ - ابن الحاجب

١١٧٤ - ١٢٤٩ م

٥٧٠ - ٦٤٦ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر. وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً وأشتغل بالقرآن حتى حفظه، وتفقه في الدين على مذهب الإمام مالك. وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم، وغلب عليه علم العربية. ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعة أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية ثم عاد إلى الاسكندرية ف قضى بها نحبه سنة ٦٤٦ هـ.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض، والأمالي النحوية، ومنتهى السؤال والأمل، في علم الأصول والجدل، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب، وكتاب جامع الأمهات في الفقه.

علم اللغة

فسدت ملكة اللسان في الحركات فاستنبت العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة

٦٤ - انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ص ١٨٢، وطبقات القراء: ٥١٦/٢ - ٥١٧، العبر: ١٨٩/٥، الطالع السعيد: ص ١٨٨، وشذرات الذهب: ٢٣٤/٥، والديباج المذهب: ٨٦/٢ - ٨٩، ووفيات الأعيان: ٢٤٨/٣ - ٢٥٠، وغاية النهاية: ٥٠٨/١ - ٥٠٩، والأعلام للزركلي: ٢١١/٤.

وما بطأت باللحن. بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ وأستعمالها، ففزعوا في حفظها إلى الكتابة والتدوين خناً بكتاب الله ولسان العرب على الجهالة والدروس. بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النبات. فلما جاء الخليل بن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين)، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي بمتواليه حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين، وبدأ بحروف العلة. وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٢٧٩ لهشام المؤيد بالأندلس، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله. ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فأستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهري فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل. ثم وضع الجوهري من المشرقين كتاب الصحاح، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم، وابن فارس كتاب المجل. وتلك هي أصول المعجمات وأسسها. أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار.

ومما يحمل التنبيه إليه والشاء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال، وجمع به المعاني المترادفة والمتقاربة في باب واحد، مبنياً ما بينها من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨، فإنه بين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات. وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية، ما لا غنية عنه لكاتب، ولا غاية بعده لطالب.

اللغويون

٦٥ - الخليل ابن أحمد

٧١٨ - ٧٨٦ م

١٠٠ - ١٧٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد أحمد أو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها؛ وأخذ النحو

٦٥ - انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٣/١٩٩ - ٢٠٠، وطبقات ابن المعتز: ص ٩٦ - ٩٩، وطبقات النحويين: ص ٤٧ - ٥١، ومعجم الأدباء: ١١/٧٢ - ٧٧، وإنباه الرواة: ١/٣٤١ - ٣٤٧، والبلغة في =

والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعليه الرواة كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر. ثم أبدى فسمع الفصح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ لغيره. وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شميل ومؤرج السدوسي. وبقي بالبصرة مقيماً طول حياته على فاقة وتقصيف، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجاافياً بها عن مطارح الهوان؛ حتى قيل إن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبيراً قفاراً وقال له: «كل، فما عندي غيره، وما دمت أجدته فلا حاجة بي إلى سليمان» وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله. فقد روي أنه قال: أريد أن أعلم نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها. فدخل المسجد وهو يعمل فكره، فأصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته.

علمه وعمله:

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه. وكان على معرفة بالموسيقى. وضع أول كتاب فيها على غير إمام أجنبية ولا علم بآلة موسيقية. وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات. وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضي الساعات في حجرتة يوقع بأصابعه ويحركها. فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خيال، فقال له الخليل.

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكنا
لكن جهلت مقالتني فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكنا

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل.

مؤلفاته:

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه، فقصده إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه، فجاء الكتاب مضطرباً مختلاً. وله غيره كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل. وكتاب الإيقاع.

= تاريخ أئمة اللغة: ص ٧٩، وتهذيب التهذيب: ١٦٣/٣ - ١٦٤، وخلاصة تذهيب الكمال: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٣١٤/٢.

٦٦ - ابن دُرَيْد

٨٣٨ - ٩٣٣ م

٢٢٣ - ٣٢١ هـ

نشأته وحياته :

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشي والسجستاني، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان، فأقام بها اثنتي عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب. ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال وولده، وهما يومئذ على عمالة فارس، وألف لهما كتاب الجمهرة في اللغة، وامتدحهما بالمقصورة، فقلدها الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه. ولما عزل ابنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام ٢٨٠ فاحتفى به الوزير علي بن الفرات وأفضل عليه. وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي فانقطع إلى العلم والأدب، وعكف على التأليف، حتى أصيب بالفالج فمات سنة ٣٢١.

أخلاقه وعلمه :

كان ابن دُرَيْد مولعاً بآلات الطب. مدمناً للخمر، مفيداً للمال، مبيداً له في اللهو والهبات، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دَنَّ نبيذ. فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقال: ليس عندي سواه. وقرأ قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١) ثم اتفق أن أهدي إليه بعد ذلك عشرة دنان، فقال لغلامه: الحسنه بعشر أمثالها. أخرجنا دنأ فجاءنا عشرة.

وقد نبغ ابن دُرَيْد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل بن أحمد. وبرع في الشعر حتى قيل فيه: إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء. وقد وضع على العرب أربعمائة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية. وتوخى فيها جمال الإنشاء، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة. وهي منثورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروى عنه

٦٦ - انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٥١٨/٢، ومعجم الشعراء: ٤٢٥، وغاية النهاية: ١١٦/٢، ومعجم

الأدباء: ١٢٧/١٨ - ١٤٣، والوافي بالوفيات: ٣٣٩ - ٣٤٣، وطبقات الشافعية: ١٣٨/٣ - ١٤٢،

وتاريخ بغداد: ١٩٥ - ١٩٧، ووفيات الأعيان: ٣٢٣ - ٣٢٩، والأعلام للزركلي: ٨٠/٦.

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

من الأخبار والنوادر. ويُظن أنها كانت الملهم الأول لابتداع فن المقامات، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية، خيره مقصوده، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم: وقد شرحها كثير من العلماء وعارضها غير واحد من الشعراء: يقول في مطلعها:

إمّا ترى رأسي حاكى لونه
واشتعل المبيض في مسوده
ومنها:

طُرةٌ صبح تحت أذيال الدجى
مثل اشتعال النار في جزل الغضا
والناس كالنبت فمنه رائق
ومنه ما تقتحم العين، فإن
والناس ألف منهم كواحد
وللفتى من ماله ما قدمت
وإنما المرء حديث بعده
واللوم للحر مقيم رادع
وآفة العقل الهوى، فمن علا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه
إذا بلوت السيف محموداً فلا

مؤلفاته:

له غير المقصورة كتاب الجمهرة في اللغة، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها، وكتاب السحاب والغيث، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿طلعتها كأنه رءوس الشياطين﴾^(١) فأجاب بأنه كقول امرئ القيس:

أيقنتني والمشرفيُّ مُضاجعي
ومسنونةٌ زُرُقُ كَأنيابِ أغوال

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول الكتاب في حد البلاغة جواباً لسؤال أو عرضاً في مقال، حتى جاء الجاحظ فألمَّ ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين. وحذا حذوه قدامة الكاتب وأبو بكر بن دريد وأبو هلال

(١) سورة: الصافات، الآية: ٦٥.

العسكري؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم. وإنما يعرف الفضل في وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وللامام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦: ذلك اخترع مباحثه وقعد قواعده، وهذا مخض زبدته وماز المعاني من البيان فجعلها علمين مستقلين.

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله بن المعتز. جمع منه سبعة عشر نوعاً ووقع معاصره قدامة بن جعفر على عشرين توارد معه على سبعة منها. ثم اقتفاهما الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ اثنين وأربعين ومائة نوع!

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوئها عند استضعاف العرب واستعجام اللغة. والمشاركة أقوم عليها من المغاربة، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها ولم يُعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعدوا أبوابه.

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر. وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروعه «كالمغازي» للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث «والفتوح» لعلم ما فتح من البلاد صلحاً أو عنوة، فينتظم أمر الخراج والجزية. «والطبقات» للتعريف براوة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين. والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ «والأنساب» لتمييز أشرف القرشيين وسادات القبائل، فتعلم مراتبهم، وتقدر روايتهم. «وأيام العرب» لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه. وأشهر الكاتبيين في هذا النوع على الترتيب ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠، والكلبي المتوفى سنة ٢٠٦، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٦

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه، خطوا في التاريخ خطوة واسعة، واختطفوا فيه خطة جامعة. فكتب عمدة المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين. فنهج المؤرخون طريقته في التصنيف. وفضلوه بما أدخلوه في كتبهم بعد من المباحث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي. صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة ٢٢٢، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١. ثم عني المؤرخون بتذليل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه. فتعاقب جماعة منهم على

الطبري بالتذليل والتكميل حتى مدوه إلى سنة ٦١٦. وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي بن الأثير ففصل كتابه الكامل من الطبري وذيوله وأصفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ.

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان: إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان مُسندة من غير اتصال ولا رابطة، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير الجزري وأبو الفداء. وتلك الطريقة على إضجارها القارئ هي الأصلية عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ: أي التوقيت. خلافاً لتسمية اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع. وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري.

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن، ولم يوفقوا إلى إتقانه، لقلّة الوسائل عندهم، وتأثير الحاكمين فيهم فجانبوا سبيل النقد محاباة للخلفاء ومهاوأة للملوك، وكالوا الحوادث جزافاً دون تحقق من صوابها، ولا نظر في أسبابها وأعقابها، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاة، وفاتهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها. وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب.

على أن لمؤرخينا العذر في هذا القصور، فإن فن التاريخ لا يتسنى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه: كعلم المسكوكات، وعلم السجلات، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم النقد، وجعل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث.

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه. ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعاً في الفقه، وتذرعاً إلى الفضل، فراجت بضاعته، وانتشرت روايته، وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياء الفرق فتقولوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعمي على الناس الحق. فشمّر الأئمة للحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل وكان

أسبقهم إلى ذلك إسحق ابن راهويه المتوفي سنة ٢٣٨ فماز الحديث من الفقه . وتلاه شيخ الحديث البخاري ، وإمام السنة مسلم ، فجمعا صحاح الأحاديث في كتابيهما ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها الستة الصحاح . وهي كتاب أبي عيسى الترمذي ٢٧٩ ، وكتاب أبي داود السجستاني ٢٧٥ ، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي ٣٠٣ ، وكتاب أبي عبد الله ابن ماجة ٢٧٣ .

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص . وكلُّ كتاب بعدها كلُّ عليها وراجع إليها .

المحدثون

٦٧ - البخاري

٨١٠ - ٨٧٠ م

١٩٤ - ٢٥٦ هـ

نشأته وحياته :

وُلد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى ونشأ بها يتيماً . فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث في التاسعة من عمره . ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف . وفي سنة ٢١١ خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه . فعاد هذان وتخلف هو للتوسع في الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهاءها حتى ارجعة الجد العائر إلى بلاده فأبتليَ فيها بفتنة القول بخلق القرآن ، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق ، فأخرج من بخارى مطروداً ، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند .

جمع كتابه «الجامع الصحيح» في ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخلها من ستمائة ألف . وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرار وجوهها . وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب في الحديث حتى من «صحيح مسلم» .

٦٧ - انظر ترجمته في : تاريخ بغداد : ٤/٢ - ٣٤ ، وطبقات الحنابلة : ٢٧١/١ - ٢٧٩ ، ووفيات الأعيان : ٥٧٦/١ - ٥٧٧ ، واللباب : ٢٣١/١ ، وشذرات الذهب : ١٣٤/٢ - ١٣٦ ، والوفائي بالوفيات : ١٦٧/٢ - ١٦٩ ، وطبقات الشافعية : ٢/٢ - ١٩ ، ومراة الجنان : ١٦٧/٢ - ١٦٩ ، والأعلام للزركلي : ٣٤/٦ .

٦٨ - مسلم بن الحجاج

٨٢٠ - ٨٧٥ م

٢٠٦ - ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري . ولد سنة ٢٠٦ ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر . وقدم بغداد غير مرة ، وأخذ عن البخاري وصادقة ودافع عنه . وروى عن ابن حنبل وابن راهويه ، وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث . وهو ثاني صحيح البخاري في الصحة والمكانة . . . ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور ، وعاش بها وادعا في ظل ثروته وريح تجارته حتى لقي ربه .

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم ، وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه . وكانت المدينة حينئذٍ عرش الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث . فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين أهله ، ونبع فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين في التشريع . ففقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا أحكامهم على النصوص ، فلا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً . وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس . وفقهاء العراق لتشددهم في الرواية ، وقلة بضاعتهم من السنة ، وتأثير الجنسية الآرية فيهم ، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه . وهم أصحاب الرأي وزعيمهم أبو حنيفة النعمان . واقتضت سياسة المنصور أن يظهر العراق على الحجاز ، وبغداد على المدينة ، والفرس على العرب ، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه ، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك . واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس . ثم جاء محمد بن إدريس الشافعي وهو أحد أتباع مالك ، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبيين وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه ، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها ثم نبغ من بعده أحمد بن حنبل فقيس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية ، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيده فيه بالسنّة وتشدد في الفروع .

٦٨ - انظر ترجمته في : الفهرست لابن خير : ص ٢١٢ ، وتاريخ بغداد : ١٣ / ١٠٠ - ١٠٤ ، والوفاي بالوفيات : ٢ / ١١٩ - ١٢٠ وطبقات الحنابلة : ١ / ٣٣٧ ، والتهديب : ١٠ / ١٢٦ - ١٢٨ ، والنجوم الزاهرة : ٣ / ٣٣ ، وشذرات الذهب : ٢ / ١٤٤ - ١٤٥ ، ومراة الجنان : ٢ / ١٧٤ ، والأعلام للزركلي : ٢٣٢ / ٧٢١ .

وهذه هي المذاهب الأربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار.

الفقهاء

٦٩ - أبو حنيفة النعمان

٦٩٩ - ٧٦٧ م

٨٠ - ١٥٠ هـ

نشأته وحياته :

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة، وأصل أبيه من فُرس كابل . كان أول أمره حَزَّازاً، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عن شافه الصحابة ونقل عنهم . وأشتهر بالنبوغ فيها حتى أَرادَه المنصور على أن يلي القضاء فأبى وقال : «أتق الله ولا ترعَ في أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟» فقال له المنصور : كذبت! أنت تصلح . فقال له : قد حكمت لي على نفسك . كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟ .

فلم يقتنع وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه . والراجح أن هذا سبب مفتعل، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين .

صفته وأخلاقه :

كان أبو حنيفة رَبعة في الرجال تعلوه سمرة، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً . وكان كثير الخشوع، طويل الصمت، قليل الدعوى، بعيداً عن الغيبة، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً .

علمه وأدبه :

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية، فقد كان يرتضخ لكنة أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً . وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك : «إنه رجل لو كلمته في هذه

٦٩ - انظر ترجمته في : المقالات للأشعري : ١٣٨/١ - ١٣٩، والفهرست : ص ٢٠١، وطبقات الفقهاء : ص ٦٧ - ٦٨، وتاريخ بغداد : ٣٢٣/١٣ - ٤٥٤، والانتقاء : ص ١٢١ - ١٧٥، والوافي بالوفيات : ٢١٥/٢ - ٢١٩، واللباب : ٣٢٥/١، والجواهر : ٢٦/١ - ٣٢، والبداية والنهاية : ١٠٧/١٠، ومرآة الجنان : ٣٠٩/١ - ٣١٢ .

السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته» وهو أول من بَوَّبَ الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه. فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. تخرج عَلَيْهِ من فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨) وغيرهم. وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين، وكتاب المخارج في الحيل، ووصيته لأصحابه في الأصول.

٧٠ - مالك بن أنس

٧١٢ - ٧٩٥ م

٩٥ - ١٧٩ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (١٢٦) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإماماً في الفقه. قيل إنه أفتى بخلع المنصور ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرده وضربه سبعين سوطاً فما أزداد إلا علاء وشرفاً. وما عتم المنصور أن آعتر إليه وترضاه وقال له: «لم يبق في الناس أفقه مني ومنك. وقد شغلتنى الخلافة، فضع للناس كتاباً ينتفعون به وتجنب رخص ابن عباس وشدائد ابن عمرو وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة» فصنف الموطأ. سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة ١٧٤ وظهرها عليه ثوب النعمة. وبقي مشرقاً لنور العلم، وقبلة لرواة الحديث، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة.

صفته وأخلاقه:

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلع كبير الرأس، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على ضوء، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول في الشيء لا يعلمه: (لا أدري).

علمه وفضله:

كان مالك من حجج الله على خلقه. لا يحدث إلا عن صحة، ولا يروي إلا عن ثقة.

٧٠- انظر ترجمته في: في المعارف: ص ٢٥٠، ٢٩٠، والديباج المذهب: ص ١٧ - ٣٠، والوفيات: ٤٣٩/١، وتهذيب التهذيب: ٥/١٠، وصفة الصفوة: ٩٩/٢، وحلية الأولياء: ٣١٦/٦، والانتقاء ص ٩-٤٧، واللباب: ٨٦/٣، وذيل المذيل: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٢٥٧/٥ - ٢٥٨.

قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وأنسخ ذرعه في الفقه فأنتهت إليه الفتوى. وهو القائل عن نفسه: «قل رجل كنت أتعلم منه مامات حتى يجيئني ويستفتيني» وبذلك سار المثل. «لا يفتى ومالك في المدينة» له كتاب الموطأ في الحديث وهو أساس المذهب المالكي، ورسالة في موعظة الرشيد.

٧١ - محمد الشافعي

٧٦٧ - ٨٢٠ م

١٥٠ - ٢٠٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده. ولد بغزة في فلسطين على مهد الفقر، ونقل بعد عامين إلى مكة، فنشأ في بني هذيل ودرج بينهم، وكانت أمه الأيم تعوله مستعينة ببر ذوي قرابته من قريش. وما كاد يناهز الإدراك حتى أندر في الذكاء والحفظ. قرأ القرآن ودرس العربية وراود البادية في طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقرأ عليه الموطأ حفظاً. فقال مالك: «إن أحد يفلح فهذا الغلام»، وفي سنة ١٩٥ وفد إلى بغداد فألتف حوله علماءها يأخذون عنه، وفيهم أحمد بن حنبل، ولقي محمد بن الحسن فبصره بالقياس. ثم دخل مصر عام ١٩٩ فأتخذها دار إقامته، وسكن الفسطاط وأملى بجامع عمرو مذهب الجديد: وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى أصطفاه الله لجواره فدفن بالقاهرة.

صفته وأخلاقه:

كان رضي الله عنه طويلاً نحيلاً، خفيف العارضين، حسن الصوت، والسَّمْت، فصيح المنطق، راجح العقل قوي الحججة، ثقة في دينه كريماً في خلقه.

علمه وفضله:

كان أفاقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وأبصرهم بأصول العلم والفقه، وحجة في اللغة، وآية في الأنساب والأخبار. وقد بلغ من المكانة في الأدب والدراية في اللغة أن قرأ

٧١- انظر ترجمته في: حلية الأولياء: ٦٣/٩ - ١٦١، الانتقاء: ص ٦٥ - ١٢١، والديباج: ٦٧ - ٢٣٠، والأعلام: ٢٦/٦، وطبقات الفقهاء: ٤٨ - ٥٠، وتاريخ بغداد: ٥٦/٢ - ٧٣، ووفيات الأعيان: ٥٦٥/١ - ٥٦٨، وطبقات الحنابلة: ٢٨٠/١ - ٢٨٤، واللباب: ٥/٢، والوافي بالوفيات: ١٧١/٢ - ١٨١، والتهذيب: ٢٥/٩ - ٣١.

عليه الأصمعي أشعار الهذليين . وقال أحمد بن حنبل : « ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة » .

توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأهل السنة . وكثر أشياعه في الأمصار فقساموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى . وشجر الخلاف بين أتباع المذاهبين ، وتعددت المناظرات ، حتى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل والراجح أن الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وصنف فيه . وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس في أيدي الناس منها إلا كتاب الأم في الفقه في سبعة مجلدات ، والرسالة في أصول الفقه ، ومسند الشافعي في الحديث .

٧٢ - أحمد بن حنبل

٧٦٣ - ٨٥٥ م

١٦٤ - ٢٤١ هـ

نشأته وحياته :

أبو عبدالله ، ابن حنبل الشيباني وُلد ببغداد ، ونشأ بها يتيماً . وطلب الحديث لست عشرة سنة ، وقد كثرت روايته ، وعرفت ثقافته ، وتميز صحيحه ، فجاب الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه ، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند . وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه ، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

استنبت مذهبه من الكتاب والسنة وشابه بشيء من القياس ، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية . وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون . ودُعي إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى ، فضُرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده وأعتل جسمه . ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة . وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيعة ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة . وكفى بذلك شهيداً على رفعة شأنه وعظم خطره .

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفرق وظهور المعتزلة . وهم يذهبون إلى

٧٢ - انظر ترجمته في : حلية الأولياء : ١٦١/٩ - ٢٣٣ ، وتاريخ بغداد : ٤١٢/٤ - ٤٢٣ ، والتهذيب : ٢٠/١ - ٢١ ، وطبقات الحنابلة : ٤/١ - ٢٠ ، والبداية والنهاية : ٣٢٥/١٠ - ٣٤٣ ، والنجوم الزاهرة : ٣٠٤/٢ - ٣٠٦ ، وشذرات الذهب : ٩٦/٢ - ٩٨ ، ومرآة الجنان : ١٣٢/٢ - ١٣٤ ، والأعلام للزركلي : ٢٠٣/١ .

تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت أميل إلى القياس والرأي. فاستفاض فيهم هذا المذهب. وأنصوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرّم نار الجدال بين السنة والاعتزال، وزين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهب بترجمة الفلسفة وأنصى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها. فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامي، وحدث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلاً، وأثرهم في الشرق ضئيلاً، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوروبا العامة يومئذ في غياب الجاهلية، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة، وأنجى هؤلاء بالطعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية. كان ذلك سرّاً في عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظهواء الحكمة، وجهرّاً في عهد المتوكل وأخلافه محيي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفّضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكائهم وألجأوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهي أشبه بجماعة «الماسون» في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلاً ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزبدة الحكمة اليونانية وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيعية. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد (٣٤٣) وهم شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وأنصرافهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرماني سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، ووزارتهم عليهم كانت أشد فاستبد الملوك بهم مسaire للشعب، وتحبباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدى بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاة الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها

حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة . ولا بدع فللعوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول .

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان . وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب هذا فيها حذو أرسطو . وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية . ويليهِ أبو نصر الفارابي المتوفى سنة (٢٣٩) الملقب بالمعلم الثاني صاحب كتاب السياسة المدنية، ومخترع القانون في الموسيقى . ثم أبو علي ابن سينا وأبو حامد الغزالي . وأما الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر باجه المتوفى سنة (٥٣٢) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨٧) صاحب رسالة حي بن يقظان ويحسبنا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم .

٧٣ - ابن سينا

٩٨١ - ١٠٣٧ م

٣٧٠ - ٤٢٨ هـ

نشأته وحياته :

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) وُلد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملاً عليها لنوح بن منصور الساماني . ثم أنتقل في طفولته إلى بخارى فحفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبادئ العلوم . وورد بخارى إذ ذاك أبو عبيد الله الناطلي فأقرأه كتاب إيساغوجي ، وخرَّجه في المنطق فبرَّز عليه فيه ، وبصره بمواضع منه . ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسيحي ، ودرس فروع وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه . فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقبسون منه . كل ذلك وسنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة . ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برَّح به ، فقربه إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه ، فقرأ فيها أئمن الكتب وأجلها . ثم أتفق أن أحرقت تلك المكتبة فنفرد أبو علي بما فيها . ويقال إنه أحرقتها لذلك عمداً .

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قسبة خوارزم وأخذ يضرب في

٧٣ - انظر ترجمته في : تاريخ الفلسفة في الإسلام : ص ١٦٤ - ١٨٨ ، والطبقات السنية : ص ٧٦١ ، وروضات الجنات ٣/ ١٧٠ - ١٨٥ ، وإيضاح المكنون : ٢/ ٥٥٥ ، والوافي بالوفيات : ١٢/ ٣٩١ - ٤١٢ ، والشقائق النعامية : ١/ ٤٧٥ - ٤٧٨ ، إغاثة اللفهان : ٢/ ٢٦٦ ، والمجددون في الإسلام : ١٨٥ - ١٨٩ ، وتاريخ الحكماء للشهرستاني : ص ٤١٣ - ٤٢٦ .

الأرض، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم أنقلب إلى همدان فتقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فأكتفى بنفيه. ولم تهادنه المصائب بعد ذلك فأتهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلا فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان، فأقام في حماه وادع النفس أحياناً؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أوهن عزمه، وأستبداد الشهوة به أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نكل عنه تدبيره وطبه، وتوفي بهمدان. علمه ومصنفاته:

لابن سينا القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة. أخذ بمبادئ أرسطو ولم يفتن عن دينه، ولم يشك بعد يقينه. إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً. وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تأليفه إلى اللاتينية وأعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف، وأشهرها كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الحكمة، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً، والثاني في ثمانية عشر.

٧٤ - حجة الإسلام الغزالي

١٠٥٨ - ١١١٢ م

٤٥٠ - ٥٠٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو حامد محمد بن محمد الغزالي بطوس، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي، ولازمه حتى توفي. فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فأختفى بقدمه وأعجب بعلومه. وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره. ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فأشتغل بها وهو يعلم. ثم أنقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها. فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والدين ضدان. فناصر الفلاسفة العداة وحمل عليهم بأسلحتهم، وقارعهم بحججهم. فلقب لذلك حجة الإسلام. ثم سلك طريق التزهّد، ونهج سبيل التصوف، فوظده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم. ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية؛ وعزم الرحلة إلى مراکش ليلقى الأمير

٧٤ - انظر ترجمته في: تبين كذب المفتري: ص ٢٩١ - ٣٠٦، وطبقات ابن الصلاح: ٢/٢١ - ٢/٢٣، وإتحاف السادة المتقين ٦/١ - ٥٣، وهديّة العارفين: ٧٩/٢ - ٨١، ومعجم المؤلفين: ١١/٢٦٦ - ٢٦٩، ومرآة الزمان: ٨/٢٥ - ٢٦، ووفيات الأعيان: ٤/٢١٦ - ٢١٩، والأنس الجليل: ١/٢٦٥، وروضات الجنات: ١٨٠ - ١٨٥، وطبقات الإسني: ٢/٢٤٢ - ٢٤٥.

يوسف بن تاشفين، فجاء نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس وأشتغل بالتعليم والتأليف. ثم اضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولكنه ما عتم أن يرجع إلى وطنه فأبتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله.

مؤلفاته:

ألف الغزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات. وقد قيل في فضله: «لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب» وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم، وقد طبع أخيراً بمصر، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه.

٧٥ - ابن رشد

١١٥٦ - ١١٩٩ م

٥٥١ - ٥٩٥ هـ

نشأته وحياته:

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ويسميه الفرنج averroés ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحثها وشارف غايتها. وفي سنة ٥٤٨ قدمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة فلخص له كتب أرسطو. ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عامين، وشخص منه إلى مراکش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذ طبيباً له ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه، وبالغ في إكرامه، ولكن الدهر أبى أن ينعم بالحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه. ثم عاد الأمير إلى نفسه فأستدعاه إلى مراکش وأعتذر إليه، وظاهر نعمته عليه. ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش.

فلسفته وكتبه:

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدد عهود الحكمة،

٧٥ - انظر ترجمته في: الدباج المذهب: ٢٤٨ - ٢٥٠، وشجرة النور الزكية: ١/١٢٩، والصلة: ٥٧٦ - ٥٧٧، وبغية الملمس: ص ٥٠، وأزهار الرياض: ٣/٥٩، والغنية: ص ١٢٢ - ١٢٥، وهديّة العارفين: ٢/٨٥ ووفيات ابن قنفذ: ص ٢٧٠، وكشف الظنون: ص ٣٦١، ١٤١٢.

وتفسر غموض الفلسفة. فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته. فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه، فكان أساساً لحكمتهم ونبراساً لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه: «إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول». ومذهب ابن رشد وأشباعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول: فيزعمون أن المادة أزلية، وأن الخلق حركة اضطرارية في هذه المادة، والخالق هو تلك الحركة أو المحرك. ويرون أن المخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها. فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدرج إلى الاستغراق في الله؛ وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد فند هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا. على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين. فكتب في ذلك كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، وكتاب «مناهج الأدلة في عقائد الملة»، وعني بالرد على «تهافت الفلاسفة» للغزالي بكتاب سماه «تهافت التهافت» يقول في آخره: «لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك» وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب، وفلسفة أرسطو، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية.

الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي

القَصَصُ فن من فنون الأدب الجليلة، يقصد به ترويح النفس باللهو، وتثقيف العقل بالحكمة. وله عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة. أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجح للدين منه، ولا غناء للملك فيه؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي؛ ولأنه نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص. فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليلة ودمنة، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصنم الذهب، حُدَيًا العرب ونموذجاً لهم في وضع ما وضعوه منها.

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا ليالهم بالمنادمة والمسامرة. فتنافس الندماء في حفظ الأقاويص والأسمار، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاهاً. واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملائهم وأعراسهم. واشتدت هذه الحاجة عندما توالى لمصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة، وعنق المتغلبين من المغول، وإخلاق الشعب في مصر إلى لتبطل والمجون، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون؛ فتقدم إليهم القصص والمحدثون، وهم للسوقة أشبه بالندمان والمهرجين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان، وأخبار الجان، وأعمال السحرة، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان. ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاق حتى قبض الله لهذه السير في دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة. ثم تنوسيت أسماءهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الأفرنجية القديمة، فكان من ذلك قصص عنترة، وبنو هلال، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهممة، والظاهر بيبرس، وعلي الزبيق المصري، وفيروز شاه. وفي رأي أن هذه

القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، فبعضها حين نشوب الحرب الصليبية، وبعضها بعد سقوط بغداد. أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها، وموضوعات حوادثها، وأسماء أشخاصها. وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بين من لغتها المشوبة، وأساليبها المتبدلة، وخيالها الغريب القوي من أثر المخدرات: وحال الاجتماع يومئذ، ونشوب الحروب الصليبية، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى، ومدح البطولة، وتمجيد القادة، إثارة للنفوس وتحميساً للجنود، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة.

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي: فكلاهما ولد على إثر الملاحم، وكلاهما ابتدأ بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة. إلا أن القصة الغربية لاحظتها غناية الأدباء، ورعاية النقد، واتساع الحضارة، وتقدم العلم، فنمت وتقدمت. أما القصة العربية بمعناها الفني المعروف فظلت في حُجر الطفولة. ومهد الخمول يلهو بها العامة، ويأنف منها الخاصة، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَة في لفائف الميلاذ. وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات.

الحكايات

ألف ليلة وليلة:

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس. وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها: كلستار للسعدي، وأصل ألف ليلة وليلة. وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب. على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية. ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه. وأصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنييه.

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهرزاد وجاريتها دنيازاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريعه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقي بابه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة، فتكاملت قصصه واستتم بنيانه، وتضاءل ما فيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة، التي تستهوي القلب، وتشحذ المخاطر، وتخصب المخيلة.

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثمّ عني به الفرنج عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم، وأفردوه بأبحاثهم. أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم: فأخبار العرب ونوادر الخلفاء وما ترجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة. وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركيك العبارة، عامي الألفاظ، مبتذل التراكيب، إلا أن مساق الأحاديث جيد، ورباط الحوادث متين.

الأمثال

كليلة ودمنة:

أما الأمثال فمنشأها الشرق؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف. انبعث في صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الطغاة إلا هذه النكايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، وإيزوب الرومي، وبيدبا الهندي. وأشهر من كتب فيه من أدباء العربية ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة. وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة: وضعه باللغة السنسكريتية بيدبا الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرناً ونيفاً على ألسنة البهائم والطيور، وعقده على اثني عشر باباً ثم ترجم إلى الفهلوية، ونقله عنها إلى العربية عبد الله بن المقفع، وصدده بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية، فإنها بقيت أصلاً تفرعت عنه الترجمات القديمة والحديثة. وزاد الكتاب بتوالي الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشرونها تباعاً بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه. ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تنتره) على ما رواه هرتال Hertal، وهرتال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليبسك وبرلين في مجلدين سنة ١٩٠٩ م.

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنتره) ترجمها إلى الفهلوية برزويه طبيب أنوشروان بأمره. وأضاف إليها أبواباً من القصص الهندي. وعن هذه الترجمة نقل

ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه. والراجح أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك في الأديان. وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيفه. وفي بعض النسخ زيدَ على الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما، وهما باب مالك الحزين والبطّة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. انتهى.

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن المقفع، وما نسبته إلى علماء الهند إلا أملاً في رواجه وانتشاره؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار. وقد نظمه كثير من شعراء العرب كابان اللاهقي وابن الهبارية، وعأوضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة).

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضاً ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ ناظم كتاب الصادح والباغم، وهو منظومة في ألفي بيت على أسلوب كليل ودمنة ثم ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليل ودمنة وجعلها في عشرة أبواب، إلا أن أمثالها يعيبها التطويل والحشو وإنشاءها يُضعفُ العمل والتكلف.

المقامات وكتابتها

المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحّة. ومعنى المقامة في الأصل المقام أي موضوع القيام، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً إلى أن قيل لما يقام من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس، فيقال: مقامات الخطباء، ومقامات القصاص، ومقامات الزهاد: وقد نشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق. وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم.

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها «الفن للفن» وتجمع شوارد اللغة ونوادير التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد. ولم تُراعَ قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كأبي زيد السروحي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري

في مقامات البديع؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة، ويسمعه في كل مجلس، ويفاجأ في كل سر. ثم يروي للناس ما عليه من خير أو شر. ذلك هو الراوي، كعيسى بن هشام في مقامات البديع، والحرث بن همام في مقامات الحريري.

أما كتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثاً عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور لنشوء المقامة. ثم جاء بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملى أربعمائة مقامة في الكندية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة. وقد مضى الكلام عنها في ترجمته. ثم جاء بعده الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبي زيد السروجي على لسان الحرث بن همام، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً. ثم عالج المقامات بعد هذين الناقلين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات السُّرقسطية لابن الأشركوني المتوفى سنة ٣٥٨ هـ وهي خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريري بالبصرة، وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم في نشرها لزوم ما لا يلزم. حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام. ومقامات الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهي مشهورة والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى بن سعيد ابن ماري النصراني البطري الطيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسجها على منوال الحريري. ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازي وهي اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوي فيها الققعاق بن زنباع وغيره. والمقامات الزينية لزين الدين بن صيقل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهي خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريريّة. نسبها إلى أبي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم بن جريان الدمشقي. ثم مقامات السيوطي وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات.